١ – حتى يبتسم أحمد

٢ – ما أحلى الإيمان وفيه أمان

٣ – سأعيش رحيق الحيـــاة

٤ – الزهور دائماً تتفتح

٥ – فجر الصيادين

شفاء

وتدور الأيام وأحمد يقترب من الشفاء .

وترك المستشفى إلى سكن هادئ وهو يستكمل ما تبقى له من علاج .

وربما كانت الخبرة التى مر بها أحمد قد فجرت بعض ما يعتمل بصدره من انفعالات شتى ، ولكنها كلها متجهة إلى خير مصر . وكان أحمد غاضباً وخائفاً ، كان مريداً ومتطلعاً إلى أمل كبير .

وجلست معه كثيرا ، وجلس معنا كثيرون ، وامتد الحوار أياماً . وابتعد القلق عن شوق ، وعاد الطفلان يلعبان فى لهو سعيد . . . وكانت الشمس دائماً حانية فى عطف . وتقفز القطة الساذجة إلى أحمد فى كل دفء الأمان .

يقول أحمد

رأيتها فى منامى بالأمس ، ورأسها الصغيرة تتحرك فى كل الدهشة ، وعيناها واسعتان متسائلتان . ونظرت إلى حيث تنظر ، ورأيت الرجل الغامض يقف قريباً منى . . . . .

حتى يبتسم أحمد

قريب جداً وأمامنا نبتت بعض الشجيرات يحيط بها عشب أخضر ، ثم شجرتان كبيرتان تغطيان مساحة من الأرض بظل وارف أثناء النهار ، وهما عملاقان ضخمان مع سواد الليل . وعلى مرمى البصر تمتد أرض صفراء يشقها طريق ممهد تجوبه السيارات . ويتناهى إلينا صوت المذياع من داخل البيت أو من منازل مجاورة . وانضمت شوق إلى مجلسنا .

قال أحد الحاضرين وقد جاوز الأربعين بقليل ويكاد ينتهي من رسالته للحصول على الدكتوراه : . . . . في محاولة لي لسبر أغوار العلاقة الدينامية بين الفرد والمجتمع أجد آراء شتى ، وأجد واقعاً فيه غير قليل من التناقض . . . . . وفي مصر قد أجد أن ضبابية تحير ، وفارقاً بين القانون والتنفيذ . . . . . .

وران شيء من الصمت التفكيري ، وصار لكل من الحضور شيء من التأمل والاستبطان . وتطلع كل لغيره ، ورأيت عيوناً تتجه لأحمد . . . ابتسم كعادته وهو يتطلع إليّ ، وأنا اتطلع إلى استاذ جليل ، واستأذنته أن يسمح لي برجاءله ليحدثنا ولو قليلا .

اهتز تاج من الشعر الفضي يعلو رأسه : وداعبت أصابعه حبات مسبحته من الكهرمان العتيق وهو يقول

هي هدية جاءتني من صديق عاد بعد أداء فريضة الحج . . . وتمهلت أناءله وهو يفكر كيف يبدأ الحديث . . . . . قال

حتى توضع الأمور في نصابها ، فأنا أعلم أن الكثير مما سوف أقوله ربما سمعتم به أو قرأتم عنه أو عن بعضه من قبل ، وأنتم صفوة . وأنا أعلم أن بعض ما سأقوله قد يراه بعضكم سياحة في أبراج عاجية ، قد يراها

بعضكم أو غيركم ، مملوءة بكلام نظرى بعيد عن الواقع الفعلى . ونحن نعلم أن الرأى الفردى فى مجتمع اشتراكى ديموقراطى حرى به أن يسمع ، والكلمة المكتوبة إذا رفعت تقرأ .

ونحن نعلم أن التنظير غالباً سابق للتطبيق ، وحق للفكر أن يسبق العمل ، كما أن نتاج التطبيق العملى قد يؤدى إلى تغيير فى الفكر النظرى . . . . وغالباً تكون هناك أرض مشتركة بين المفكرين فى مجالات التربية والعاملين فى المدارس والإدارات التعليمية . إذ ليس كل أساتذة التربية نظريين ، وليس كل العاملين فى الحقل واقعيين .

وعلينا أن نعلم فى تأكيد واثق أن صاحب الفكر التربوى الذى عاش للتربية وأنواعها وإعصاراتها معلماً واستاذاً ومفكراً لا يملك برجاً عاجياً يسكنه لأنه محتاج دائماً أن يضع قدميه على أرض الواقع وتحلق رأسه سابحة فى سحب آملة متفائلة . وهو وإن وقف على أرض مجتمعه فإن عينيه تطلان شاخصتين من على على مجتمعات أخرى ، ثم تعودان إلى حيث تقف القدمان .

ومصرنا العزيزة غنية بهؤلاء المفكرين ، وفيهم خير وفير ، سواء من العاملين فى التدريس أو الإدارة أو غيرهم. لذلك فإن مدرس المدرسة الإبتدائية له رأى ويجب أن يحترم ، وله قول ويجب أن يسمع ، وحرى به أن يشترك فى اتخاذ القرار حتى يستطيع أن يقتنع بضرورة وأهمية وحتمية تعليم أطفاله فى المدرسة أموراً تكاد تخلو منها مدارسنا . . . . . منها الاشتراك فى اتخاذ القرارات . . . . أنا لست فى برج عاجى بل فى صميم أرض بلدى حيث يجب أن تكون . ما يجرى فى مدارسنا عجب ، المعرفة هامة ولكن الأكثر أهمية هو كيفية استخدام المعرفة . ما أسهل أن نعطى المعرفة — وقد حولها بعض الأخوة إلى ملخصات وبهريزات ومنجدات ومنقذات

فى كتب صغيرة ملخصة يحفظها النشئ وتنسى بقدرة القادر العلى — ولكن الصعب كيف نستخدمها . هذا هو التحدى الحقيقى على كافة المستويات والمراحل التعليمية .

أود أن أقول — إذا سمحتم لى — إن هناك تغيراً حادثاً من حولنا وفينا . وعند ما أتكلم عن المشاركة فى اتخاذ القرارات فلست أعنى مطلقاً مجرد تقبل التغيير ، ولكن فى ركائز عملية اتخاذ القرارات التى تواكب هذا التغيير . . . . وخاصة بالنسبة لهؤلاء الذين يقومون بالتنفيذ لعلنا نتطلع إلى موقع يكون فيه المنفذ شريكاً مع من يصدر قرار التغيير . . . . هى شورى ، وهى تعاون ، وهى تآلف فى حب لخير الغير . . . . هنا تمحى الفرقة بين (الكبير) و (الصغير) ، بين من يقبض مرتباً أعلى ومن يقبض مرتباً أقل . خذ العلاقة بين النظافة والمرض والطب . علاقة وطيدة فى أغلب الحالات ، إذ لو حرص الكناس وحامل القمامة لما تكاثرت الحشرات وتكاثر الذباب . . . وتقل أسباب نقل العدوى . . . ويقل المرض . . . أو أن هذا ما أتصوره ، وقد أكون على خطأ . والتشبيه مع الفارق الضخم الكبير ولا علاقة له مطلقاً بالعملية التعليمية ؛ فإن الممرض فى المستشفى الكبير هو معين هام لأكبر جراح . إن إهماله قد يفسد عمل الطبيب الكبير بل قد يهدمه . هنا يكون مربط الفرس ، كل عمل له احترامه وقدسيته وأهميته . ويجب أن يقدر . أنت وأنا نحتاج إلى رغيف الخبز ، لنحترم إذن الخباز ، بدونه لن نأكل . نحترمه يعنى أن نقدر عمله ونجله . . . ونشكره . ما نتصوره أعمالاً صغيرة هى كبيرة فى الواقع . من هنا تأتى قيمة احترام العمل ، وهى قيمة — إذا سمحتم لى — أفتقدها فى مناهج مدارسنا . . . . للأسف وللأسف الشديد — وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

أعود فأقول ، إن المجتمع ينضج عند ما تكون الأفكار المعارضة

وسيلة للتصحيح والتصويب إنطلاقاً إلى رأى فيه سداد ثم إلى تنفيذ فيه تقدم للمجتمع . على أعلى المستويات والمناصب الإدارية من وزراء وغيرهم ينسحب القول : إن الأمر شورى ولا بد أن يكون شورى هذا يعنى أن لكل رأى أهميته وقيمته ، وأن رأى الكبير — إن كان فى العلم كبير بمنصبه — هو رأى فرد يطرح على بساط النقاش والبحث والدراسة ، وكل رأى من الآراء الأخرى له نفس الأهمية والاحترام والتقدير . . . . وإلا صارت الأمور تجرى فى فلك من ديكتاتورية متسلطة لا ترتضيها شريعة الله ولا اتجاهات مجتمعنا . وإلا عدنا إلى مجتمعات الإغريق القديمة ، فالسادة كانوا يفكرون للعبيد ، وعلى العبيد أن يتقبلوا وينفذوا ، وعدد العبيد بالنسبة للسادة حوالى عشرين ضعفاً . لنقف ونتمهل ونفكر ، إذ أن العبد هو من يترك لغيره أن يفكر له . وليس أبداً هذا مجتمعنا ، وليست أبداً هذه مصرنا الحبيبة ذات الحضارة التى تمتد إلى أكثر من سبعة آلاف سنة .

مصر اليوم هى مصر التى يجلس كبير القوم إلى القوم من فلاحين وصيادين وغيرهم يناقشهم ، ويستمع إليهم ، وتنفتح الصدور والقلوب ، ويكون لقاء الأب مع أبنائه للخير . ثم لقاءات بين وزير التعليم وكبار رجال التعليم ، وفيها أخذ وعطاء . . . لكن على المسئولين أن يلتقوا مع المعلمين ويكون حوار جاد ، ويكون نقاش هادف ، ولنستمع ، ولنعرف ونفهم ونعى ماذا يحدث فعلاً فى المدارس . . . . ربما هنا نبدأ أول خطوه فى الإصلاح . . من يدرى ؟ . . . .

. . . ويتوقف المتحدث

واتطلع إلى أحمد فأرى محاولة ابتسامة ترتسم على شفتيه وتحاول أن تكسر قسمات وجهه . ويعود المتحدث يقول

أعود — وأرجو أن تسمحوا لى — فأقول إن ما أشرت إليه هو الديموقراطية الحقة ، هى الشورى بأجل وأعظم معانيها ، ويجب أن تؤكد الآن فى عزم وحزم . ولن يتأتى هذا إلا إذا بدأنا بتربية جديدة لأطفالنا ، وإعادة تربية لشبابنا ، وإعادة وإعادة تربية لمن يعملون فى وظائف الدولة ويتعاملون مع جماهير الشعب ، بأية صور وأية سلطات . بل والأمر الهام أن أنادى بإعادة تربية لقيادات إدارية فى شتى المجالات . ليس عيباً أن يتعلم الفرد مهما علا منصبه ، ولكن العيب فى تصوره أنه قد وصل . . . وكفى . أبداً ، فإن للإدارة أصولاً ومن أهمها العلاقات البشرية .

وقد تمر سنوات وسنوات حتى يصل المفهوم والمدرك إلى العقول ثم إلى التنفيذ . لكن يجب أن نبدأ الآن ، وحتماً لآن ، إذ أن التراكمات تزداد وتزداد ، ويجب أن يكون هناك عمل حاسم وسريع . . . . . ربما هذه هى مشكلة القائمين على إدارة العملية التعليمية فى مصر . . . العزيزة . وكان الله فى عونهم ، فالأمر جد صعب . . . . . ربما هى منى صرخة ألم فى تربية الشعوب المتطلعة إلى تقدم .

وحتى يكون حوار فى مناخ مشبع بعاطفة حب مصر ، فلعل الأفكار الصادرة عن عقول مخلصة تجد قبولاً فى مساواة عملية . والكبير كبير بقدر ما يعطى حقاً للغير ، والصغير صغير بقدر ما يعطى بهتاناً لنفسه . وعندما يكون الحوار موضوعياً ، والأمر شورى ، فسوف تنبت الأشجار ثماراً حلالاً تعطى آكلها قوة وصحة ومنفعة . والرأى السليم النابع من حوار متكافئ هو الذى يمهد الطريق إلى شاطئ الاتفاق ، ثم إلى عبور للتقدم .

والتقدم سمة عصرنا الذى تتألق فيه التربية قوة وفضيلة وثروة . وقوة التربية يرفعها إعصار جبار يؤثر على كل ما ينتشر على أرض الواقع . إذ كيف يكون هناك تغير فى مجتمع دون أن يكون هناك تغير فى أفراد هذا المجتمع .

والمجتمع يضم أفراداً بينهم علاقات ، وخلفهم آلام وأمامهم آمال ، وبقدر ما يكون تضافر وتعاون الأفراد يكون خير هذا المجتمع . ويجب أن يكون التعاون على البر والتقوى . وكم من مشروعات نجحت بالجهود الذاتية وعزم الإدارة الجماعية . هذه الإرادة الخيرة هدف هام من أهداف التربية

التربية — وهذا عصرها — عملية نمو إجرائية تدعو (إلى) وترمى (إلى) ، وتؤدى بنا (إلى) . فهى وإن كانت تجرى الآن حيث يعيش المتعلم حاضره ، فهى أيضاً تعده من جميع جوانبه إلى مستقبل ، ربما نعلم عنه شيئاً ونجهل أشياء خاصة مع سرعة التغير .

التغير الحادث جبار ، إذ يحمل عملية التربية إلى عين الإعصار الذى قد يلفظها لأنها لا تلاحق التقدم والتغير الحادث فى مجتمع يتسم بالوحدة العضوية . بل ، ربما لم نأخذ أخذاً سريعاً وعميقاً بثورة الاتصالات ، الأمر الذى يتطلب نظرة جديدة فيما تؤثره هذه الثورة فى المناهج الدراسية وطرائق التدريس . أخشى من هذا الاتساع المضطرد بين الدول المتقدمة والنامية . ولن نستطيع أن نعبر التخلف بأساليب وتقنيات تقليدية ، ولكن بثورة علمية جادة محطمة خطوط الخوف والتردد ، حتى يستطيع الأنسان المصرى فى مسيرة بنائه إقتحام طريق التقدم .

والتقدم يحدث بتربية سليمة فيها عصرة العصرية من حيث المحتوى والأساليب . وفوق كل هذا القوى البشرية الفاعلة المؤثرة على عقول ونفوس وقيم وأجسام أجيالنا الصاعدة . والتربية عملية إنسانية فى المقام الأول ، لأنها تتعامل مع الإنسان الذى كرمه الله .

وحتى يكون الفرد إنساناً فيجب أن تبزغ شمس الكرامة بدفئها ونورها . وللإنسان معايير وقيم خلقية ، ولو قل السلوك الأخلاقى فى مجتمع ما أو تناقص

بشكل ملحوظ تصير الأمور فوضى وتتحكم شريعة الغاب . بل لعل هذه الشريعة البشعة تتحكم فى أحايين غير قليلة بالوعى أو اللا وعى فى تصرفات تؤدى إلى كسوف شمس فيظلم نهار المجتمع ويتوارى نور الحق . بل قد تأخذنا هذه الشريعة الغابية إلى قاع محيط حيث السمك الكبير يأكل السمك الصغير . ثم نصعد إلى السطح ، ثم إلى اليابس ، وما زال الكبير — أحيانا — يلتهم الصغير ، ثم ينام الشبعان ملء الجفون ! !

مهمة كبرى التربية تنشئة الفرد ليكون إنساناً فى مجتمعه ، وهذا يتطلب التعامل مع الفرد بأن له نفس الحقوق التى لغيره وأن عليه واجبات نحو غيره ومجتمعه . والتربية هنا تهدف إلى خير الفرد وخير المجتمع فلا هى تسمح للفرد بالطغيان ولا للمجتمع بالطغيان ، هى عملية فردية واجتماعية . وإذا كان من حق الفرد على الدولة أن تعلمه ، فليس هذا حقاً مطلقاً ، إذ للدولة أيضاً حقوقا على الفرد ، وعليه واجبات إزاءها . والمفروض أن يكون هناك اتصال وثيق بين الجهد الذى يبذله المتعلم واستعداداته وقدراته ، هذا من ناحية الفرد . وكذلك بالنسبة للمجتمع فيكون هناك توازن بين ما تبذله المؤسسات التعليمية ، وإمكانات وقدرات الأفراد . . . وانتم تتحدثون كثيراً عن الفروق الفردية .

• • •

وساد شىء من الصمت

ووجه أحمد يزداد ارتياحاً

ويعبث الأستاذ الجليل بخصلات شعره الفضى ، وعيون البعض تلتهم كلامه وتستوعب إشارات يديه وخلجات وجهه ، وغضبه أحياناً وابتسامات كثيرة تغطى وجهه أحايين أخرى : . . . والمسبحة تتهادى آمنة بين أصابعه .

ثم قال ..... أعود إلى حق الفرد وحق المجتمع ، ولى رأى ، قد لا يعجب المسئولين ، ولكننى أرجو أن يعالج بسعة صدر ، ورائدى خير الأفراد وخير المجتمع .

مجانية التعليم إنجاز عظيم ، ونحن نفخر به عالمياً . أما فى الواقع فالأمر محير ويدعو إلى التساؤل والتفكير . والقانون الذى وضعه الإنسان ، هو نفسه قادر على تعديله وتغييره ، والحياة فيها من التجارب الكثير ، وفيها نجاح وفيها فشل . أسأل : هل هناك خير فى استمرار التعليم العام (ابتدائى ، وإعدادى أو متوسط ، وثانوى أكاديمى) بشكله المجانى ومضمونه دروس خصوصية ؟ ثم أسأل هل نساوى بين القادرين مالياً — وعن سعة — وبين الفقراء والمعوزين ؟ هل هى ديموقراطية تعليم أن يتعلم إبن القادر بمدرسين خصوصيين فى بيته أو بيت مدرسه ويحضر إلى المدرسة إتماماً لعملية شكلية أو استعراضية ؟ هل نلوم المدرس بمرتبه المحدود إذا كان فى الدروس الخصوصية كنز ثمين ؟ هل نلوم المدرسين لمواد ليست فيها دروس خصوصية إذا فتر حماسهم ؟ هل نلوم المدرسين فى سباقهم المحموم للسفر إلى الخارج للعمل ؟ إننى أمجد هذا المعلم (وطبعاً المعلمة) الذى يقف أمام أكثر من خمسين طفلاً يحاول أن يعلمهم ، وفيهم الطيبون وفيهم الشياطين . أيقترب هذا من العمل المستحيل ؟ أعلم أن مصانع الأحذية فى افتقارها إلى العمال ، ترغب الأفراد فتعطى كل واحد مبلغاً يصل إلى خمسمائة جنيه كمقدم من حقه ولا يعيده ، ثم تعطيه جنيهين فى اليوم .

عفواً فقد حدت عن الخط ..... أعود . لعلنى أطلب من المسئولين إجراء دراسة جادة ..... أكرر جادة ..... فى ظاهرة الدروس الخصوصية ....

تدخل أحد الجالسين مقاطعاً .... لا نكثر القول على المدرسة

وما أدت إليه من تسيب فى المجتمع ، وهو أمر بلغ الحلقوم وصار شيئاً يثير القلق ، والعقوبات غير رادعة ، ونشالون يقبض عليهم ولهم أكثر من خمس عشرة سابقة ، وربما تعلموا فى السجن حيلاً أخرى . . .

لا يجب أن نحمل المدرسة فوق طاقتها ، وظروفها معروفة وإمكاناتها معروفة أيضاً ، إذ أن هناك وسائط أخرى كالبيت ووسائل الإعلام ، وهى مسئولة ، بل ربما لا تتأخى مع ما تحاول المدرسة أن تفعله . أبحث عن علاقة تعاونية فاعلة فى بناء الطفل المصرى حتى لا يغضب ، إذ أن ساعة الغضب ليست لها عقارب . . . . أعنى ما أقول . وما المدرسة إلا هذه الجزيرة التى تبعد عن الساحل فى عمق واتساع البحر ، وتتصل به بجسر طويل ، يعبره الأطفال صباحاً إلى هذه الجزيرة ويمضون على أرضها ساعات قليلة (جداً) يتعلمون أشياء ، وقد يطالبون بسلوك قد يتبع على هذه الجزيرة . ثم يدق جرس ، يهلل له الأطفال والمتعلمون ، ويهتز بهم الجسر وهم يندفعون فى شدة الحماس فى رحلة الإياب إلى الشاطئ . وعلى الأرض خلف الشاطئ يختلف الحال عن الجزيرة بعد أن خلع المتعلمون الأقنعة ليلبسونها فى الغد ؛ أهى تمثيلية تتكرر ؟ أما ماذا ؟

ويأتى يوم يجلس هؤلاء الأفراد تحت رقابة — المفروض أنها مشددة — للامتحان . وبعضهم يحتاج بضروراتهم الخاصة إلى الغش ، فقد تقاعس وتكاسل حتى دهمه الامتحان ، حيث يكرم فيه المرء أو يهان . وينجح البعض فقد تذكروا يوم الامتحان ما استذكروه وبقى فى ذاكرتهم ، فاستخدموه فنجحوا . وقد ينسون الكثير ما استذكروه بمجرد تسليم أوراق الإجابة . . . . ومن يدرى ؟

وقد تعبت المدرسة واشتد تعبها من هذه المضايقات والمناورات والإيحاءات التى توجهها مؤسسات أخرى ، تعبت بمن فيها وما فيها . . . وعلى سبيل

مثال بسيط صريح — إذا سمحتم لى — هذه الـ (مدرسة المشاغبين) بما فيها من حلو التمثيل والنكتة والموقف . . . على حساب من ؟ ولمصلحة من ؟ سؤالان جديران بالتأمل والتفكير . ثم هذا التمجيد الخارق للاعبي كرة القدم واحتياطى الفريق ، على حساب ماذا ؟ ولمصلحة دولة تحاول أن تنهض ؟ . . . وأحمد الله أن صار أخيراً ، وأخيراً جداً جزاءات رادعة على اللاعبين الذين يسيئون لأخلاق الرياضة . . . . وبقى أن تقطع ألسنة المتلفظين بألفاظ نابية قذرة ، أعنى تقطع يعنى تقطع . . . لكن أن نحميهم بأن نبنى (كشكاً) زجاجياً حتى يمنع عنا — نحن الذين نتابع المباراة فى البيوت — هذا العفن الأخلاقى — هذا يعنى اعترافاً باستمرار هذه المصيبة الأخلاقية . الكلب المسعور نقيده ونضع على وجهه كمامة تقينا منه ، وقد نستبعده .

يجب على الشرطة أن تسهم أكثر إيجابية فيما تحاوله المدارس . ولديها قوة ، وإن لم يكن لديها قوة ، فيجب أن تقوى وتدعم . المتهور بألفاظ قذرة يقبض عليه ويحاكم ، وخير كثير أن يقطع اللسان القذر حتى لا ينمى ألسنة تشابهه قذارة . وكفانا .

. . . . . .

وعادت المسبحة مع اهتزاز التاج الفضى على رأس عالم جليل واستكمل حديثه الهادئ العميق . إذن ، فالدروس الخصوصية تلعب دوراً يستشرى فى العملية التربوية ، ليس فقط فى التعليم العام ، ولكن أيضاً فى الجامعات وتتهدد مبادئ ننادى بها ، فالقادر مالياً له امتياز فى تعليم أبنائه . . وهذا خطأ وخطر . ثم قد نتساءل فى واقعية إجرائية ، هل من خير فى أن يدفع القادرون مصروفات لأبنائهم وتستخدم لتحسين العملية التعليمية ؟ هل من خير فى أن نأخذ من الطالب الذى يرسب مصاريف عن السنة التالية ؟ المسألة ليست عقاباً يوقع على القادر أو على الراسب ، ولكن

المقصود مزيداً من العناية والاهتمام إذ كيف يسمح لطالب الجامعة ، والدولة تعلمه بالمجان أن يهمل ويتكاسل ويتقاعس ويرسب ويرسب . على الدولة أن تتحمل مصروفات الطالب المجد ، لا الفاشل .

وليستمر التعليم الفنى بالمجان ، بل وقد يكون خيراً فى أن يتحول فعلاً إلى الإنتاج . وقد نقترح أن تكفى المدرسة الصناعية أو الزراعية أو التجارية نفسها بنفسها ، فتنتج وبباع الانتاج ويسوق ، والأرباح تشكل ميزانية المدرسة ، وقد تكون فيها حوافز للمعلمين والإدارة والطلبة .

وقد تعهد بعض المدارس الفنية إلى شركات أو مؤسسات ، وهنا يصير الربط الحقيقى بين المدرسة والبيئة وتسقط جدران العقبات التى طالما أحدثت هذا البعد بينهما . كما نقترح مزيداً من القنوات والفرص التى تتاح أمام خريجى هذه المدارس لدراسات أعلى . ونقترح تدخلاً أكثر فعالية من المسئولين لتحديد أعداد من يلحقون بالمدارس الثانوية الأكاديمية ، وصولاً إلى تقليل أعداد من يلحقون بالجامعات والمعاهد العليا ، ويتخرجون وقد لا يجدون أعمالاً إلا بعد سنوات . لهذا ، فالاقتراح قائم بأن تتوقف الأجهزة المسئولة عن مسئولية تعيين الخريجين ، وقد يصير تفكير جاد فى إلغاء تسعيرة الشهادات . . . . .

إن ما يراه البعض فى مكاتب بعض الوزارات والقطاع العام يثير عشرات الأسئلة ، وتتناول الرسوم الساخرة بعض ما يدور فى غير قليل من التهكم . ربما موظف واحد يستطيع أن يقوم بمفرده بالعمل وبنجاح . أما إذا كانوا ثلاثة مثلا ، فربما تتعطل الأعمال أو يتطرق إليها فساد .

إذن فالأمر برمته يتطلب نظرة جديدة تخرج بنا عن القوالب التى عهدناها ، وقد وضعناها ولا أدرى ما المانع فى أن نغيرها لخير الأفراد وخير المجتمع ؟

ما أكثر ما قاله القوم فى كلامهم وكتاباتهم عن روعة انجازات صناعية وعمرانية ، عن مصانع تقام وجسور تمد ، وانفاق تقتحم باطن الأرض ... الخ ، وما كانت هذه تتم لو اختصرت اعتماداتها المالية . ونحن نتعامل تربوياً مع أعز وأعظم وأثمن ما يملكه المجتمع ، نتعامل مع الثروة البشرية ، مع عقول الأطفال والطلبة حيث يبدأ تكوين الاتجاهات والقيم ... وحيث يكون التعلم ثم إلى سلوك .

يقول المربون إن المدخلات الرخيصة لعمليات التعلم والتعليم تؤدى إلى مخرجات رخيصة أيضاً . ويقولون إن العظمة الحضارية للأمم تظهر وتتجلى فى نوع وسياسة ومبانى التعليم وتنوعه ومداه . بل ومع كل هذا مكانة المعلم الاجتماعية والاقتصادية . والمعلم المعد غالياً عطاؤه من ذهب يتلألأ فى جنبات المجتمع ..... وكاد المعلم أن يكون رسولاً .

ثم ألم يقل رفاعه رافع الطهطاوى فى كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ... إن خير الناس من يمشى على الأرض المعلمون . وعندما انتصر نابليون بونابرت على بروسيا فى معركة يينا ، قرر الفليسوف الألمانى فخته أن يلجأ إلى سلاح التربية حتى يحقق البروسيون النصر على أعدائهم الفرنسيين . وبدئ إعداد الشباب والأطفال إعداداً مغايراً لما كان متبعاً ، حتى تحقق النصر بعد حوالى ثلثى قرن من الهزيمة فى يينا . وهنا أعلن بسمارك (السياسى الألمانى والرجل الحديدى) ، أن الذى انتصر فى حرب السبعين هو « معلم المدرسة » :

وكم نادى رشيد رضا والشيخ محمد عبده بأن إصلاح الأمة يتوقف على اصلاح المدارس .

ما احلى الايمان وفيه امان

وحتى لا يكون حرث فى ماء أو نقش على هواء ، نقف ونتمهل ولا نتعجل ، فأمور التربية يجب أن تؤخذ بالعلمية والموضوعية . ولا بد من حماس وانفعال غضب ، وغيرة لإثارة قضايا يجب أن تثار . والقضية الهامة هى الأخلاق .

وقف الشيخ محمد عبده أمام كنيسة موريالى القديمة فى صقلية معجباً بجمالها وقدمها ، ويقول « إن العرب رحمهم الله ، لم يمسوا هذه الكنيسة بسوء مع عظمة سطوتهم ، وامتداد ملكهم فى صقلية » ، ثم يتساءل عن العرب . . . أين هم ؟ ويجيب « يمكن أن يقول قائل : إنهم فى جزيرة العرب ، أو فى الشام ، أو فى العراق ، أو فى مصر ، أو فى تونس والجزائر ، أو فى المغرب الأقصى . . . . ألم يكفك كل هذا العدد فى أكثر من ألف بلد ، حتى تقول أين هم ؟ ولكن أقول له : إنما يكون القوم أولئك القوم ، إذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم ، فإذا كان لم تبق سوى أشباح تشبه أشباحهم ، فليسوا منهم ، ولى الحق أن أقول عن العرب : أين هم ؟ » .

« أما قومى فأبعدهم عنى ، أشد قرباً منى ، وما أبعد الإنصاف منهم . . . يظنون بى الظنون ، بل يتربصون بى ريب المنون ، تسرعاً منهم فى الأحكام ، وذهاباً مع الأوهام ، وولعاً بكثرة الكلام ، وتلذذاً بلوك الملام . أقول فلا يسمعون وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون ، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون . وأضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون إلى حيث يهلكون ، شأنهم الصياح والعويل ، والصخب والتهويل ، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل فى مثلهم .

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا

وأقول : . . ولا من الخير . . . .

* * *

ويدور الحديث جاداً عن التربية الدينية ، وهذا خير كبير ، ولكن أخذ المسائل بالكم إن لم يكن شراً فهو ليس بخير . الدين المعاملة ، والسلوك الخلقى هو ما نريده ونصبو إليه . وفى رأى بعض المربين أن القيم الإيمانية لن تتكون بمجرد زيادة عدد حصص التربية الدينية فى المدارس من الصف الأول الإبتدائى إلى السنة النهائية فى الكليات والمعاهد العليا . ولا شك أنه أمر جميل ومقبول جداً أن تكون مقررات التربية الدينية مقررات أساسية ولها أهميتها ، ولكن الأجمل كيف تكون . . . . هل يحفظ التلاميذ معلومات دينية على ظهر القلب ثم يجلسون فى نهاية كل عام دراسى ليمروا فى نفس الخبرة الامتحانية كبقية المواد ؟ الأمر يتطلب وقفة تفكيرية صريحة ، قد تعجب البعض وقد لا تعجب غيرهم :

التساؤل : هل معرفة الفضيلة تعنى بالضرورة سلوكاً فاضلاً ؟ أعنى هل معرفة فرد ما أن السرقة حرام تؤدى إلى امتناعه عن السرقة ؟ المعرفة خطوة أولى وضرورية لتكوين اتجاه أو قيمة . وما أيسر هذه الخطوة . والمساجد والكنائس تعظ الناس ، ومنذ قرون طويلة مضت ، بل يتعلم الأطفال منذ الصف الأول الإبتدائى أصول دينهم ، وفى تدرج . والنتيجة ماثلة أمام أعيننا . ربما الأمر يذكرنى بحصة اللغه العربية حيث يحافظ التلاميذ قدر استطاعتهم على ما تفعله كان واخواتها فى المبتدأ والخبر . . . . وكيف تجر الأسماء جراً بعد حروف معينة ، لكن فى بقيه الحصص فتسحب سلطات كان واخواتها وإن واخواتها ، وترفض تلك الحروف المعينة جر أى اسم مهما كان . . . . ! !

القضية إذن أعمق من دروس فى التربية الدينية ، إنها تتعلق بمناخ أشمل وأكثر إحاطة ، إذ لا يسعد المربين نظام الامتحانات بصورته الراهنة كإجراء لتقييم التلاميذ ، ولهم فى هذا كلام كثير . والاتجاه إلى أن التقييم عملية مستمرة لا تقتصر فقط على الجانب المعرفى فى عمليه التعليم . هذا يعنى أن السلوك الأخلاقى فى تقييمه له معايير وإجراءات أخرى إلى جانب قياس الكم المعرفى الذى يحصله التلاميذ ويسألون فيه شفوياً أو تحريرياً .

كما يرى جمهرة المربين فى إصرار حاسم حازم أن القدوة الحسنة يجب أن تكون ركيزة أساسية فى التربية الدينية ، كما أن متابعة السلوك تشكل جانباً حيوياً فى هذه العملية التربوية . وأرجو أن تسمحوا لى باقتباس فقرات جاءت فى مقال كتبه الدكتور عماد عبد الحليم النجـــار بعنوان « تعالوا . . نفهم الإسلام » ونشر بجريدة الأخبار يوم ١٨ — ١١ — ١٩٧٩ . . . . والكاتب كتب تحت عنوان فرعى (ما . . الاسلام ؟)

« الإسلام فى كلمة موجزة هو النور الذى يسيطر على ذات المؤمن فيدفعه إلى الخير ويبعده عن الشر ، وهو الحكومة الذاتية المسيطرة تبصره بالخير وتدفعه إليه وتكشف له الشر وتدفعه عنه .

وأول ما يعتز به الاسلام هو التوحيد باعتباره ركن الاسلام الأول وعلينا أن نلقى فى كل يوم نوراً وضياء من الأسانيد لدعم التوحيد فهو ركن الاسلام الركين ولا يقوم إلا به ، ونعتقد أن التوحيد غير مجلو لدى المسلمين أو غالبيتهم فى هذا الزمان . ولو سيطر على الوجدان والعقل والعاطفة لما كانت هذه الموبقات سائدة فى المجتمع .

فالمؤمن الحق الذى يستشعر الله الواحد القهار فى نفسه وفى كل لحظة

قلما يقع فى الخطايا ، وهو لا يرتكبها وهو مؤمن ، ولا يستولى عليه خوف من سلطان أو بطش من طاغية لأنه يؤمن بأن الكل عبيد الله فلا يهادن ولا يوارى ولا يداهن من أجل نفع أو مصلحة . لأن الأمور تسير بقدرة الله ومشيئته .

— وهكذا يكبر الناس فى ذواتهم ويستعلون على الرذائل ويتجنبون الدنايا . . لذا يجب التركيز على هذا المبدأ الأساسى فى الإسلام . . والصوم والصلاة والزكاة والحج دعامات لتحريك هذا الجوهر الأصيل فى الإسلام وهو الجوهر المحارب فى هذا الزمان بالشرك والإلحاد اللذين تثيرهما شيوعية هذا الزمان .

ومن ثم وجب التركيز على الاسلام فى هذا الجوهر الأصيل وألا نختلف حول تفصيلات وتفريعات ، أما صلب الاسلام وجوهره فهو التوحيد وهو الإيمان بإله واحد تتمثل صفاته فى صفات الله المعروفة فى كتابه وعلى المؤمنين الأخذ بها ما استطاعوا لينصلح حالهم .

أما عن الدعوة إلى الإسلام فواجب أن تتركز حول هذه الغاية . . غاية التوحيد والبعد عن التفاصيل التى يختلف الناس فيها ولا أهمية للإدلاء فيها برأى دون آخر ، أما أسلوبها فيجب أن يعاد النظر فيه .

فحديث علماء الدين أصبح متكررا معادا لا يستحسنه الشباب ولا يتأثرون به وهم على حق فى الضجر والميل عن هذه الأساليب فى الدعوة إلى الاسلام . . لأن العصر الذى نعيشه الآن لم يعد يجدى فيه الاقناع بمجرد ذكر الآية واظهار ما فيها من بيان وبديع واستعارة وتشبيه ، أو تناول ألوان الثواب والعقاب فى الآخرة . . لما فى ذلك من قفز إلى النتيجة دون حديث عن المقدمات . . لأنه عصر مادى وقد حقق العلم فيه انجازات رائعة . . ومن حق الشباب الاستماع إلى دعوة الاسلام عن طريق هذا الاقناع العلمى الذى يشفى القلوب والوجدان ويرضى العقل والمنطق .

يجب أن نتخذ من هذه الانجازات العلمية أدلة تدعم الدين وتثبته ما دامت صحتها قد استقرت ورسخت. والاقناع بهذه العلوم والمعارف بات ضرورة عصرية وحقيقة لا سبيل إلى البعد عنها .. والقرآن ذاته يفرض ذلك ويأمر به .. فالقرآن ستة آلاف آية منها خمسمائة تبحث فى الأحكام وأقل من نصف هذه الآيات الأخيرة يبحث شئون التشريع والفقه والباقى حوالى أربعة آلاف تتحدث عن التوحيد وتخاطب العقل والفكر وتدعو إلى استنباط الحقائق العلمية .. فكيف نعمل الاسلام بجزء منه دون أجزائه الأخرى ؟ وهو ما نهى الله عباده عنه ليس فقط بعدم الإيمان ببعض الكتاب والإيمان ببعضه بل بإهمال البعض والاهتمام بالبعض الآخر؛ وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى على لسان نبيه شاكيا مسلك عباده (يا رب إن قومى اتخذوا هــذا القرآن مهجورا) وهو شأننا فى هذا الزمان حيث نهجر ثلثى القرآن ونعمل بثلثه الآخر ومن ثم وجب على الدعاة إلى الاسلام أن يتخذوا من الانجازات العلمية سنداً للدين ودعوة إلى العلم والعمل والتقدم والازدهار .

عليهم أن يتزودوا بهذه المعارف أو يستعينوا بالخبراء فيها يرددون معهم آيات الله كفريق ينير سبيل الحق ويدعو إلى الرشاد وليس ترديداً لبعض الآيات والأحاديث . حين يعلمون الصلاة والصوم والحج والزكاة وهى بالطبع أساسية – إنما يجب إلى جانبها الدعوة إلى الاحاطة بالعلم فى كل نواحى الحياة من فلك وطب وهندسة واقتصاد واجتماع ونبات وحيوان وتعدين وصناعة وغيرها واعتبار ذلك كله فريضة دينية .

وحسبنا الاختلاف والتناحر حول تفصيلات لا تمس جوهر الاسلام وهى ليست سوى قشور على سطحه – وبهذا نخدم الاسلام ونعظم به ونصبح جديرين بالانتماء إليه خلقين بالعيش فى ظله .»

• • •

تؤدى التربية الدينية إلى وضع الفرد على الطريق القويم السليم حتى يكون بحق مخلوقاً فى أكمل صورة متبعاً الحق نائياً عن الباطل . هو إذن فرد يتعامل مع نفسه ومع غيره سراً وعلانية ، يريد رضا الله عز وجل . ويتطلب هذا أموراً ثلاث :

— المعرفة بأصول وقواعد الدين ، وتعطى له المعرفة أولاً بسيطة يهضمها عقل المتعلم ، ثم تزداد إتساعاً وعمقاً مع تدرجه فى مراحل نموه الزمنى والعقلى . . . وهنا يجب أن تشترك مؤسسات أخرى معاونة المدرسة فى عملها ، ويجب أن يكون هناك تفاهم وتعاون بين مختلف الأوساط التى تؤثر فى تربية الأفراد .

— وجود القدوة الحسنه فى البيت وفى المدرسة وفى المجتمع . وهـذا موضوع يحتاج فى دراسته إلى جهد ووقت واخلاص يبذل من قبل الأفراد المعنيين . والأمثلة صارخة فى المجتمع والمدرسة والبيت وهى تضع أطفالنا فى حيرة وجدانية تكاد تؤذيهم ، أو تؤذى الكثيرين منهم . إذ قد يقتنع الطفل بما يقدم له فى المدرسة ، ثم يرى ما حوله يكاد يعصف بما تعلمه واقتنع به . . . إن نظرة إلى الشارع وما فيه تثير الأسى والحزن والألم عند من لديهم الوعى الصادق بما يجب أن يكون عليه سلوك المواطن . والرأى أن موضوع القدوة الحسنة يتطلب دراسات تربوية واجتماعية ونفسية ودينية كثيرة ، ويفضل أن تكون على مستوى العمل الجمعى . وقد يرى البعض أن نتائج الدراسات معروفة مسبقاً ، وقد يكون بعض الحق معهم . ولكن نأمل أن يكون هناك تخطيط مبنى على نتائج دراسات علمية ، وفى الغالب سوف تكون له فعاليات ونتائج أكثر .

— السلطة التى تتابع سلوك وتثيب وتعاقب ، وتمدح وتذم ، وتردع المنحرف وتؤدب المخالف . إذ قد تكون بعض الأحكام القضائية التى

توقع على بعض المنحرفين لا تتناسب مطلقاً مع الأضرار الجسيمة والنفسية والمادية والاجتماعية التى تقع على أفراد المجتمع . الخطر هنا أن العقاب الهين يشجع على اقتراف الخطأ ، وقد لا يضبط المخطىء وينجو بما فعل . . . . ناهيك عن مخالفات المرور مثلاً وعقوباتها أو هى ذاتها تمحى مجاملة أو استحياء أو خوفاً من غضب ما . . . . . وجود هذا وغيره يؤدى منطقياً وعملياً إلى تصدع فى احترام الناس للقانون وتنفيذه . أعجبتنى « فكرة » للصحفى الكبير الأستاذ مصطفى أمين فى هذا الموضوع وردت بجريدة الأخبار بتاريخ ١٦ — ١ — ١٩٨٠ ، وأرجو أن انقلها كما هى . . . يقول

متى يعود للخط الأبيض احترامه فى بلادنا ؟

هذا الخط الذى كان يرسمه المرور فى شوارعنا فتتوقف عنده السيارات ولا تجتازه . فإذا حدث وداست عليه عجلة السيارة أعتبرنا هذا مخالفة واعتداء على القانون !

لم يعد للخط الأبيض المرسوم بالدوكو أى احترام . ولم يعد المرور يكلف نفسه بالرسم بالدوكو توفيرا للوقت والجهد وثمن الطلاء وأصبحت علامات المرور الكهربائية تعكس المقصود منها . إذا احمرت تحركت السيارات ، وإذا اخضرت توقفت السيارات ، وإذا اسودت اختلط الحابل بالنابل !

وأصبحت المدن فى بلادنا اعلانا دائماً على استهتارنا بالمواطن المسكين الذى لا يملك سيارة ولا يستطيع أن يركب الأوتوبيس . . فى أى بلد فى العالم تجد المارة يمشون فى وسط الطريق ، بينما الرصيف قد خصص لتقف عليه السيارات ، أو لتصف فوقه الموائد والمقاعد ، أو لتزدحم فيه أكوام

البضائع ! ونحن نتفنن فى تضييق الأرصفة فى بلادنا بينما العالم يتجه إلى توسيع الأرصفة .

فى الشارع الخامس فى نيويورك تجد أن عرض الرصيف الذى يمشى عليه المارة أكبر من عرض الشارع الذى تمشى فيه السيارات والاتوبيسات !

ونظن أن الوقت قد حان لنعيد الاحترام للشارع المصرى . إن السيارات تتعمد أن تقف فى وسط الشارع فتغلق الطريق ، وتعطل المرور ، وتضاعف متاعب أصحاب المصالح وتحرق أعصابهم . سيارة واحدة تقف فى منتصف الشارع لينزل منها راكب أو ليركب فيها راكب ، ونتيجة لهذا تتوقف مائة سيارة خلفها لا تستطيع المرور . ذلك لأن راكب السيارة يعتقد أنه صاحب الشارع ، وأنه يمتلك كل شبر فيه وأنه اشتراه بماله ، أو ورثه عن المرحوم أبيه ، وهو من أجل ذلك حر يقف بسيارته كيف يشاء ، ويزحم الطريق كما يشاء ، ويعطل المواصلات فى المدينة كلها ، ولا يهمه إذا كان يوقف طبيبا فى طريقه لاسعاف مريض أو سيارة مطافى تعدو لإخماد حريق !

يمكن تعيين مائة كونستابل جديد . يشترط فيهم الأمانة وحسن التصرف مهمتهم أن يحالفوا كل سيارة تخالف نظام المرور . أو تقف فى الطريق الممنوع . ويتقاضى الغرامة فوراً كما يحدث فى كثير من بلاد العالم . وعلى المعترض أن يذهب إلى محكمة المرور تنعقد ليل نهار وتبت فى القضية فى الحال . إن الحصيلة من هذه المخالفات ممكن أن تبنى بيوتا للذين لا يجدون لهم مأوى !

ان بعض سيارات الأوتوبيس الآن تذكرنا بقطار السكك الحديدية الضيقة فى قرانا منذ خمسين عاما ! كان السائق يوقف القطار ليتناول

الافطار . أو يمر على قرية فيها ميت فينزل بها ليقدم العزاء . أو يرى فرحا فى الطريق فيوقف القطار وينزل ليرقص عشرة بلدى فى الزفة ! إننى رأيت أوتوبيسات فى بعض المدن يقف سائقوها بالركاب ليشترى فولا مدمسا أو ليأخذ تعميرة أو ليدخل قافية مع بائع من أصدقائه فى الطريق . . ورأيت أوتوبيسا يصعد على الرصيف ليعاكس حسناء !

يجب أن نعيد للطرق احترامها . ويجب أن نعرف أن الذين يمشون على أقدامهم من حقهم أن يشعروا أن لهم احترامهم وأن لهم مكانهم وأن إرغامى على أن أمشى فى وسط الشارع هو مساواة بين الآدمى والدواب التى تمشى فى وسط الشارع . .

اعيدوا للشارع احترامه . .

ومن هنا يبدأ احترام القانون !

• • •

لا نفتأ نسمع ونرى ما يقال ويكتب عن السلوك الأخلاقى فى المجتمع ، ومعظمنا لا يعجبه الحال ويكتفى بالقاء السؤال تلو السؤال . هل يمكن أن نطلب تنفيذاً دقيقا واعياً شجاعاً للقانون فى الشارع وبعقوبات رادعة ؟ ربما يتعلم الأفراد خوفاً له روعته ، هو الخوف من القانون وسطوته . ربما انساب هذا الخوف إلى آفاق ومجالات أخرى .

هل نطمع فى طموح أن يكون هدفاً من أهداف التربية زرع أو تكوين هذا الخوف كانفعال هام يؤثر فى سلوك الأفراد . خوف من الله فلا نعمل لغضبه ولكن نسلك لرضائه ، خوف من المرض فلا نهمل فى صحتنا ، خوف من العار . . . خوف من الفشل . . . بل خوف من غضب المجتمع . . الخ . هذه أنواع من الخوف مطلوبة حتى يكون هناك انضباط للفرد مع نفسه ،

وانضباط فى سلوكه فى المجتمع . والخوف يتأتى بعد قناعة سليمة تتملك عقل الفرد ووجدانه ويعيشها ويتمثلها فى كل التفهم والصدق . . . وهنا يزول انفعال الخوف إلى رغبة صادقة وعزم على السلوك الصحيح .

إن البناء الرصين للمجتمع يبدأ ببناء الإنسان أولاً ، وبذور هذا البناء فى داخل الأفراد . وإلى هذا الداخل تتجه كل المحاولات ، ويقول ميثاق اليونسكو . . . إن الحروب تبدأ فى عقول الأفراد . إلى العقول توجه المجهودات لتكون عواطف معينة خيره ، وتهذب انفعالات لتكون هادية للسلوك القويم والعمل الصالح . قد نلجأ إلى ما لجأت إليه الصين مثلاً بتطبيق فورى للمخالف أو المنحرف ويعاقب ، ويعاقب من يعاقب ويثاب من يثاب . . . . . والسؤال : من يراقب من ؟

أليس من المؤلم المؤسف أن مشروعات تصرف عليها عشرات الملايين ثم يتطرق إليها الفساد لفساد فى أخلاق بعض العاملين بها . هؤلاء قتله وسفاحون لأنهم يقتلون تطلعات المسؤلين والشعب ، ويوقفون عجلة التقدم . . . . ومنهم كثيرون يهربون بجرائمهم البشعة . ونسمع ونقرأ عن الرشاوى والسرقات من المال العام ، وحرية الصحافه وحرية القلم — ولله الحمد — توقفنا على بعض الانحرافات . . . ونتحسر ، إذ أن بعض المنحرفين يحملون أعلى المؤهلات . هل صار انفصال إذن بين تعليم عالٍ ، وعلى أعلى الدرجات ، والأخلاق . حفنة قليلة كتفاحة معطبة تفسد كل التفاح فى السلة .

يجب أن تكون هناك الرقابة المؤمنة الجادة . فالمنحرفون فقدوا صلاتهم بالقانون الإلهى ، وهم بهذا ليسوا أهلاً للحياة فى مجتمع يحاول بكل ما يستطيع أن يتقدم . . . . . وسوف يتقدم .

إذن ، فهو هدف من أسمى أهداف التربية إيمان الفرد بالخلق القويم

والتعامل السليم مع نفسه ومع غيره . كل شيء — وأكرر كل شيء — فى المدرسة بالذات يجب أن يتجه إلى تحقيق هذا الهدف . بل لا يرتبط الخلق القويم بمستوى اجتماعى أو اقتصادى أو بمنصب . وإذا صار تعليم الزامى متحقق ، فى أى عدد من السنوات ، فيجب أن يكون هذا الهدف رائده ، سداده ولحمته . . . نوره الهادى .

• • •

تثمر التربية الدينية السليمة وتؤتى أكلها عند ما يشعر الفرد داخلياً بالألم عند ما يخطئ حتى ولو لم يره أحد . الوازع الداخلى هو حجر الزاوية ولا بد من العقاب الصارم للمخطئ والمخالف ، قانون يسرى على الجميع دون استثناء . الاستثناءات هى الطريق السلطانى للفوضى .

أعود وأكرر أننى إذا طالبت بتنمية الخوف من الله والعقوبات ، فإن القصد الأول والهام هو فى المراحل الأولى والبدايات حيث يكون الاقتناع ليس ملزماً للسلوك ، ولكن التجارب والخبرات تعزز وتقوى الاقتناع الذى كان على المستوى النظرى والذى عززه التطبيق العملى الواقعى فى حياة الفرد فى المجتمع . عندئذ يصبح السلوك السليم جزءاً من نسيج تكوين الفرد . عندئذ يسلك الفرد لأنه اقتنع نظرياً وعملياً . ما أروع أن نجد أفراداً يسلكون الحق والسليم لمجرد الاقتناع النظرى . . . . بل ربما تكون هذه فاتحة خير ، ويكون هذا هدفاً سامياً للتربية . . . وهنا ينزوى الخوف . . . لكن متى وكيف يحدث هذا ؟

قد تكون العلاقة غريبة بعض الشيء بين انفعال الخوف ومفهوم الحرية . الحرية تعنى أن يفعل الفرد ما يريد شريطة ألا يتعدى على حريات الآخرين . أنا حر فى الاستماع للمذياع فى بيتى ، هذا حق لى ، ولكن إذا

كان صوته عالياً يتسلل إلى حجرة جارى ويقلق نومه ، فهذا تعد على حريته . والخلق السليم يدفعنى إلى الخوف من اقلاق راحة جارى . الحرية كلمه ، مفهوم ، مدرك ، حق . . . . خلق الله الناس احراراً . ولكن الحرية المطلقة دون ضوابط فيها خطر . فأنت حر ، ولكن عليك أن تخاف الجور على حريات الغير ، لأنك لا تريد أحداً يجور على حريتك أنت . وأنت حر فى تعاملك مع الغير ، ولكن للغير أيضاً حقوق يجب أن تخضع تعاملك معهم لهذه الحقوق ، وعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به . يبدأ هذا المفهوم ينمو فى البيت وفى المدرسة حتى يخرج الأفراد إلى المجتمع واعين لمعنى الحرية .

وهذا أيضاً هدف هام من أهداف التربية . . . يجب أن تدعو إليه مختلف أوساطها وخاصة المدرسة التى عليها أن ترسخه فى قوة .

لتكن هناك مئات من حصص التربية الدينية ومحاضراتها ، وامتحانات ، وسوف يحفظ المتعلمون ما يعطى لهم على ظهر القلب . ولكن المعرفة سهل الحصول عليها ، والمطلوب هو السلوك ، وهذا شىء أساسى ، بل هو المحصلة المطلوبة . وأسأل فى حرية : ألا يعرف كل من يغش فى الامتحان أنه يسلك خطأ ، وان العقاب ينتظره ؟ نعم ، وقد لا نعجب كثيراً إذا غش بعض الطلاب فى امتحانات التربية الدينية التحريرية .

مع التمهل والتعمق يحدونا الأمل فى أن يتدارس المسئولون أساليب أخرى لتربية الأفراد دينياً ، فإن من فرط بعد غالبية أبنائنا عن الدين أمسوا أشجاراً يبست أغصانها وأوراقها ، تتلاعب بها الرياح ، وهى لا حول لها ولا قوة . . . فقد افتقدت أمان الإيمان .

ودون التعرض لحساسيات البعض من علماء الدين ، وحماسهم شديد ، ورغباتهم عزيزة ، يجب أن يكون هناك حوار بناء يشترك معهم آخرون ممن

يهمهم الأمر . ومن يهمهم الأمر ينتمون إلى تخصصات عدة قد لا تكون لها صلة مباشرة بالتربية كما نعهدها فى معناها المألوف فى المدارس وأحياناً قليلة خارجها . إن لرجل القانون قولا هنا ، وإن للشرطة قولا . كما أن جهاز الرياضة مسئول وله قول . . . . . وغيرهم كثيرون . إذن فلتمتد الأيادى متصافحة لخير أطفالنا وشبابنا ولخير بلدنا .

إن هدفاً بناء من أهداف التربية يجب أن يتجه لمواجهة التحدى الإلحادى . وإضعاف الإيمان بالله . وقد يأخذ هذا التحدى صوراً شتى متخفياً وراء شعارات خادعة أو مرتدياً أزياء زائفة ، ملمحاً وواعداً بأمنيات معسولة . إن الدين المتمكن فى قلب المؤمن صخرة أعتى وأقوى من أشد الرياح ، فتهب دون أن تحرك الصخرة قيد أنملة .

يتطلب هذا التكوين الإيمانى عند الأفراد ، وترسخ القيم الروحية عند النشء بتضافر كل الأنشطة التربوية فى المدرسة . كل درس هو فى الأصل درس أخلاق ثم تأتى المادة العلمية وكيفية حصول المتعلم عليها . وفى البداية بالبواكير بركة وخير . والتساهل فى مراحل التعليم الأولى فى البيت ثم فى المدرسة عواقبه غير طيبة . لا أقول إن التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر . . . لا ، ولكن ما أعنيه أن طبيعة الطفولة فى مرونتها تساعد على تكوين الاتجاهات والقيم . . . لهذا صار إهتمام كبير وكبير جداً بمرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية فى الدول الرأسمالية والشيوعية .

وكان فى مصر — أيام زمان — دور حضانة ورياض الأطفال . وأغلقت أبوابها ، ربما خوفاً من غضب ديموقراطية التعليم وتكافؤ الفرص . أو لأسباب أخرى . . . وهذا موضوع آخر .

الإيمان بالله وطاعته يزكيان النفس ، ويهدى إلى راحة ما أجملها وما أنبلها وما أجلها .

سأعيش رحيق الحياة

أيام مرت . . . :

واتصلت بى شوق قائلة إن أزمة صحية (خفيفة) ألمت بأحمد وأن أحد الجيران أحضر له طبيباً طمأنهم عليه . ربما كان أثراً جانبياً طفيفاً من أثر الحادثة . . . وأعطاه حقنة مخدرة . . . ونام أحمد . ربما ما حدث لأحمد فى غيابى عنه كنت أعرف أطرافاً منه ، أو هذا ما خيل إلى . . . . :

لكننى أذكر سيولاً تهطل من السماء تروى أرضاً واسعة تشققت من كثرة لهفتها على ما يرويها ، وهى تشتاق إلى البذور تنميها فى أحشائها بعد أن جاءها الغيث ، وتلتئم الشقوق وتكسو الأرض دموع الشكر ، ويزول وجهها الجامد الكشر ، ويحل وجه باسم رطب .

وأذكر أحمد وقد نام من تأثير المخدر ، وهو حائر بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية ، فإن خواطر كثيرة تلح عليه أن العود أحمد ، وأن عليه أن يعود كله إلى مصر وهى الآن تحاول أن تسابق الزمن وتطوى مسافات شاسعة من التخلف . أحس هذا الصراع الفكرى الوجدانى فى رأس أحمد . . . ربما حدثنى به مرة أو أكثر ، وهو – كما قلت – صراعه هو ، ويجب أن يقرر عن قناعة ، وقراره قد لا تكون رجعة فيه ، فقد بلغ من السن كبراً ، وقد يصير تغيير كبير مرة . . . ولكن مرتين ؟ هذا أمر جد صعب . . . .

وأذكر أننى لمحت الرجل الغامض وهو واقف عند رأس أحمد . . . قسمات وجهه ضبابية – ولكن كل وجهه يبتسم هادئاً ، وما زال الطربوش

يغطى رأسه ، وما زال دائم الصمت . هو صمت حلو محير . ويحاول أحمد أن يتسلل بعينيه إلى وجه الرجل الغامض ، لكن عضلات رقبته لا تساعده . وكانت القطة الساذجة تتطلع إليه متعجبة لفشله فى عملية بسيطة كهذه تستطيعها هى بكل سهولة .

إذن فهى مرة أخرى أشارك أحمد أفكاره . . . . هذا حس . وانطلقت بعد حديث شوق فى طريقى إلى حيث يعيش أحمد مع عائلته ، ومعى اثنان من أقاربى فتى وفتاة أنهيا دراستهما الجامعية منذ عدة أشهر . أجابنى الشاب بعد سؤالى له : — بل أنا جالس بالبيت — انتظر . . . لو كنت فتاة لقلت انتظر شيئاً آخر . . . .

استقبلنا أحمد وهو يقول . . . كانت سحابة صيف سرعان ما انقشعت ، ولله الحمد . وجلسنا بعد التعارف وجاءت شوق وسألت الشابة والشاب ، وقالت :

ربما لو استقر بنا المقام هنا قد أفكر فى استخدام ما تعلمته فى مشروع ، ولدينا المال . . . تتبقى القوى البشرية . . . والمكان . . . هو مشروع عن إنشاء دور حضانة ورياض أطفال . . . هنا فى مصر الجديدة وقد تنتشر ، وأعلم أن مجهودات بذلت ، ولكن (المرشدات) — أعنى المدرسات الصالحات للتعامل مع صغار الأطفال نادرات . لذلك فقد أبدأ بإعداد عدد منهن فى نفس الوقت الذى يعد فيه المكان المناسب . إن تطور المجتمع يحتم وجود هذه الدور ، ويدفع أولياء الأمور مصاريف ليست كبيرة مطلقاً ، وقد تسهم وزارات وهيئات فى المصاريف . أما العائد فهو كبير ، فإن الأم الآمنة على طفلها أثناء عملها سوف تؤدى عملها بجدية أكثر ، وكذلك الوالد . الانتاج هو الرابح ؛ وهؤلاء الأطفال هم رجال المستقبل .

قد ترسل الدولة بعضاً من خريجات الجامعة فى بعثات قصيرة إلى الخارج

ليدرسوا ويتدربوا على العمل فى دور الحضانة ورياض الأطفال . . . . أرى الأخت تبتسم ، ربما دهشة ؟ . . . ربما تأففاً ؟ إذ كيف تقبل خريجة الجامعة أن تعمل مع أطفال . . . لم يصلوا حتى إلى مستوى التعليم الابتدائى ؟

تدخل أحمد ، وهو يعرف ماذا تعنى شوق . أما أنا فكان لكلماتها أثراً دق أجراساً مدوية فى رأسى ، فها هى شوق زميلتنا العزيزة فى مدرجات الجامعة منذ ربع قرن ، وهى الآن المصرية / الأمريكية التى تحمل أعلى المؤهلات العلمية ، وتعرفها الجامعات فى الخارج . . . وكما عهدناها فى حماسها وعزتها واخلاصها تدعو إلى عمل ما أحوج مصر إليه . . . . قال أحمد . . . .

شوق على حق . . . وكنت انظر إلى اختنا الشابة ، فهى لم تتأفف ولم تستنكر ولكن وجهها يعبر عن تعجب ، إذ ما قالته شوق يمس بعض قيم مجتمعنا ، وبعضها يجب أن يتغير إذا اعترفنا بأن العمل شرف ، وأن العمل عبادة . نعرف صديقة لنا هناك فى الخارج ، راتبها السنوى لا يقل عن راتبى إلا قليلاً جداً وتحمل مؤهلات عليا مرموقة ، وهى مدرسة للصف الثالث الابتدائى . . . . وهى فخورة بهذا ، وأفراد مجتمعها الصغير يضعونها فى الصدارة ، وفى المجتمع الكبير لها كل التقدير . وتأتيها فى أعياد الميلاد بطاقات المعايدة ممن علمتهم وهم أطفال ولهم مناصب وإدارة . . . ويذكرون فضلها عليهم . وما أكثر من يكتبون إليها معترفين بفضلها فيما كونته فيهم من عادات واتجاهات وقيم . . . لا أقول من علمنى حرفاً صرت له عبداً ، هذا قول مبالغ فيه شكلاً ، ولكن مضمونه عظيم . . ضاع فى غمار (المدينة والمدنية) .

وليست شوق رائدة فى هذا المجال ، ففى مصر الكثيرات ممن سبقتها ، وفيهن خير كبير ، وننتظر عطاء أكبر . إذ أن مرحلة ما قبل التعليم الابتدائى

مرحلة لها أهميتها القصوى فى وقت أصبحت مؤثرات كثيرة تتدخل فى إعطاء أطفالنا غير القليل من الأفكار ، وبعضها ضار .

واستأذنكم — إذا سمحتم لى — ومعنا شاب وفتاة ، مثل الورد ، هم اثنان من عشرات الآلاف من الشباب الذين تخرجوا فى الجامعات والمعاهد العليا ، ومعهم أيضا عشرات الآلاف من شبابنا يضيعون صيفهم فى فراغ تسكعى ، وأرض مصر أصفرها وأخضرها تئن متضرعة إلى عقولهم وإلى سواعدهم القوية . كيف لا يتحرك المجتمع بإيجابية أكثر ليستفيد من هذه القوة البشرية ونحن نخوض معركة شرسة مضنية مع التخلف بصوره الثقافية والمادية والإنمائية ؟

الملل آفة نفسية إذا تسربت إلى فرد متطلع ولا يجد ما يفعله ويغذى ذاته فنتوقع منه ما لا نرضى ، وتتحكم الظروف فى أحواله ، فى نظراته ، فى سلوكه ، فيما يجيش بصدره .... هكذا عملته الظروف . والمجتمع قادر على أن يعيد تشكيله ، بل يشكله فى الأصل . إذ يعيش بعض أبنائنا فترة زمنية حتى تعيبهم القوى العاملة ، وبعضهم أو جلهم يمضى سنة فى الخدمة العامة . وفى هذه الخدمة العامة أقوال كثيرة . ربما بحث علمى يلقى أضواء على ما يدور ويجرى .

إن التعميم الجامع المانع علمياً غير جائز إلا بعد دراسات علمية يجب أن تبحث فى هذه الخدمة العامة . ولكن المنطق يصيح غاضباً — إلى جانب طفلنا الغاضب — طالباً أعمالاً أكثر إثماراً تستغل فيها هذه الطاقات العقلية والجسمية لعشرات الآلاف فى أعمال يحتاجها المجتمع ، بعد تدريب لا يستغرق إلا أسابيع أقل فى عددها من أصابع يد واحدة ! !

إن فى تجارب بعض الدول التى أصيبت بنكبات بعد حروب طاحنة مدمرة ، أو كوارث مهلكة ما يمكن أن يفيدنا فوائد جمة . ولكن أعود

فأقول إن الكثيرين منا يفضلون عدم المجازفة ، إذ فى الأمور اليسيرة غير المفيدة أمان من خطأ أو عدم رغبة فى بذل جهد .... وفى نهاية الشهر يقبض كل مرتبه .... ويا دار ما دخلك شر . أبداً أبداً ... لا يجب أن يكون هذا واقع مجتمعنا . أتكلم من منطلق الواقعية .

لست أدرى ماذا أقول والأمور واضحة فى وهج الشمس ، وعندنا من الكفاءات المخططة ما تكفى منقطة الشرق الأوسط ، وأكثر وأكثر . ثم عندنا — ولله الحمد — مشكلة الأمية المزمنة ، وربما تتفاقم وتتزايد ، بل وهناك مشكلات أخرى تعرفها جيداً بعض الوزارات حق المعرفة . ثم .... أمامنا شباب يتفجر حيوية وعلماً ... عرفنا بعضهم أفراد الصاعقة ، عاشوا الصحراء بقسوتها لا يكادوا يجدون الأديم فى مهماتهم المقدسة ، وتسحق أسنانهم أعشاب الصحراء وتنبش أظفارهم بحثاً عن الماء تحت شمس محرقة أو رياح لا ترحم فى صقيعها . واليوم تغضب قوة الشباب وهى تبحث لاهثة عن توجيهات رشيدة لأعمال تبنى مصرنا كلنا .

هذه النفوس والأجسام والعقول التى تكاد تتمزق ، وتشتاق العمل ، هى لا تحتاج إلى عملة صعبة ، هذه الحجة التى ربما أصبحت واهنة ، ولكنها تحتاج إلى قوة موجهة واعية مدركة وقادرة على بذل الجهد حتى تشير إلى مواقع العمل الفعال المؤثر . حرام ، وخطأ كبير أن يترك عشرات الآلاف من شبابنا فى أحلى سنى العمر تعصف بهم رياح إلى دوامة الحيرة .... وأرض مصرهم العزيزة فى شوق إليهم ، ونهم ، تستجديهم أن تعالوا أن لكم فى خيراً وفيراً .... ربما هم لا يعرفون الطريق ..... ويا أيها الفلك على وشك الرحيل ... قف تمهل .

كم من نفوس تقتل وهى تستقبل رحيق الحياة فى معترك الحيـــاة ، ثم هل من لوم إذا صار غضب على المجتمع ، أو اندفاع مجنون إلى أرض

أخرى حيث المال وفير والجهد غير كبير ؟ وللأسف الشديد فإن البعض ممن فى يدهم جزء من الأمر ينبرون فى كل حماس الاخلاص ، يحاولون عمل شيء . . . ويقول قائل : يعنى هل ستصلح الكون يا أخى ؟

هى سلبية ولا مبالاه يراها الشباب ويحسها . وربما تخرج شباب من مدارس ثانوية (بأنواعها) ومن جامعات ومعاهد عليا وفيهم حماس وآمال عظام . ثم شيئاً فشيئاً تبدأ الشعلة تخبو . . . ثم تنطفئ . هذا زلزال يهز المجتمع المتطلع للتقدم ، إذ تجرف بعض شبابه الغض المزدهر دوامات مائية يصبح نهباً لها . . . ثم لا يعرف له شاطئاً ولا مرفأ . إن شباباً فى أحلى أيام العمر بعد تخرجهم يتلهفون إلى هذه الأيدى الحانية التى تعترف بهم بشراً متطلعاً إلى آمال ، ولا يجب أن نقتل النفس الوثابة الآملة . ثمة سادية توجد عند قلة فى المجتمع ، ولكن آثارها محرقة للنفوس ، وربما يستحيل شفاء من حروق وصلت درجة معينة .

كثيرون من هؤلاء الشباب فتية آمنوا بربهم ، ويجب أن نزيدهم هدى . . . وإلا ، فنحن نشهد بعض ما يحدث . أن يجد الواحد منهم بعد سنوات من الدرس والتحصيل ، وعرق الآباء والأمهات أحياناً ، أنه أرسل إلى مكان لا يعرف فيه شيئاً ، ولا أوله من آخره ، ويقابل وجوهاً عابسة وربما صدوراً قاسية مستنكرة . . . ماذا يفعل ؟ وأية قيم يكونها لتحل محل قيم أخرى ؟

هذه ثروة نلقى بها فى البحر ، ويمكن أن تستغل ، وتفيد المجتمع ويستفيد الأفراد ، على الأقل نفسياً . ولا يجب أن نقول إن هذا أمر يتطلب مالاً . . . والميزانية ؟ . . . حسب أحد المسئولين أو المهتمين ، لست أذكر ، حسب حسبة واحدة من الآلاف . قال إننا ننقل كل عام ستة ملايين من أطنان القمح ، ويتكلف نقل كل طن أربعين دولاراً .

ولو اشترينا ناقلات لوفرنا مئات الملايين من الدولارات . هذا يعنى أن سوء التخطيط يجعلنا نخسر مئات الملايين . . . وفى الأمر ما فيه .

إن مئات الملايين من ساعات عمل وانتاج تضيع لسوء التخطيط الذى يقع على عشرات الألوف من قوانا البشرية القادرة على العطاء واتمام انجازات من أعمال يدوية أو عقلية .

الكلام هنا عن نسبة مئوية عالية من خريجى بعض كليات الجامعات والمعاهد العليا ، وليس عن أقلية أصبح كثير من أفرادها — إن استطاعوا — يفضلون العمل بعيداً عن الإدارات الحكومية والقطاع العام . وقد صارت أحاديث عن الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وعن البطالة المقنعة . . . الخ وهذه أمور يجب أن تؤخذ بجدية نافعة .

الزهور دائما تتفتح

لم تكن دعوة عابرة تلك التى وجهتها لأحمد وعائلته ، فقد أصر قريب لى خرج إلى المعاش واتخذ الريف مقاماً له . ولنا فى القرية دار كبيرة حاضرة لإقامة مريحة . . . . والخير وفير . ولم يبد أحمد إلا كل حماس . . . .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها الطفلان ريف مصر الأخضر ، ولكن ما هال شوق حقاً هذه الأعداد الهائلة من الفلاحات يضيعن جزءاً كبيراً من وقتهن فى الحديث ، كما عجبت لأعداد كبيرة من الأطفال فى سن الإلزام ، وهم يعملون فى الحقول أو لا يعملون شيئاً ، والدراسة منتظمة فى المدارس . وأحب أحمد شخصية المضيف والمشروعات التى ينوى القيام بها وقد صار لديه الوقت ، وكان وما زال عنده المال والأفكار .

سأل الرجل أسئلة كثيرة عن استغلال الوقت فى الدول المتقدمة وعن اعتماد أغلبية من السكان على أقلية تعمل لهم . وكان الظاهر من مسار أسئلته أن لديه شيئاً يريد أن يقوله . وكانت الظروف سانحة ، فنحن جلوس فى ظل شجرة ضخمة ، والحقول حولنا وبقايا طعام شهى أمامنا فى انتظار من يحمله . . . . . وارتشف المضيف قليلاً من الشاى ثم قال . . . . .

جميل جداً أن نفخر أمام الدول بأن لدينا تعليماً مجانياً فى كل مراحل الدراسة من الصف الأول الابتدائى حتى الحصول على درجة الدكتوراه . وجميل أن التعليم الإلزامى يمتد ست سنوات ، والاتجاه إلى زيادتها إلى تسع سنوات . ولكن أموراً خبرتها وخاصة هنا فى هذه القرية وقرى أخرى جعلتنى أفكر . وتفكيرى يستند إلى الواقع المحسوس ولذلك فهو نابع من ركيزة قوية ويهدف إلى هدف أراه خيراً لمصر . المثاليات لا تعنينى كثيراً ، بل قد أرى فيها بعض الخطر لمجتمع يعانى الكثير ويتطلع بكل الشغف إلى التقدم .

ولنأخذ أحسن صورة فى واقع التعليم الابتدائى : كثرة عددية فى تلاميذ الفصل الواحد ، ولنتصور أن المعلم أو المعلمة على قدر من القدرة التربوية غير قليل ، ولنتصور أن نسبة حضورهما تصل إلى ٩٠ ٪ من أيام الدراسة (وهذا أمر مشكوك فيه جداً وخاصة بالنسبة للمعلمات المتزوجات) ، غير أن الواقع فعلاً أن أيام الدراسة كل عام ميلادى تصل إلى حوالى ١٥٠ يوما ، يتعرض فيها التلاميذ إلى مواقف تربوية لا تزيد عن أربع ساعات يومية . وأسأل : هل يعقل أن الدراسة تنتهى فى شهر إبريل كل عام مع ظروف مناخنا الجميل المريح ؟

وإذا نادى البعض بأن تمتد الدراسة إلى عشرة أشهر ، فإن بعض

المسئولين سينبرون مستنكرين هذا التدخل الطائش فى غير علم ولا دراية بأمور يفهمهما المختصون . . . لا بأس ، فهم يدافعون عن الدراسة المنتهية فى إبريل بأن هناك امتحانات عامة من ابتدائية واعدادية وثانوية . . : وهى أساسية . والسؤال : ما دخل طفل الصف الثالث أو الرابع الابتدائى بهذه الامتحانات العامة ؟ أم أن أساس التربية فى مصر صار الاعداد لهـذه الامتحانات العامة ؟

كيف يعقل أن يبتعد الأطفال عن التربية والتعليم حوالى خمسة أشهر متتالية ؟ . . . . هذا تبديد فى ثروة عظمى يمتلكها المجتمع وينادى صارخاً باتخاذ إجراء ثورى . . . . وكفى ما فات ، وما ضاع .

وهناك حجة دامغة يخضع لها بعض المسئولين التربويين ، إذ أن بعض المحافظين ، ولهم سلطات رئيس الجمهورية ، يأمرون بأن تنتهى الدراسة فى وقت مبكر حفاظاً على الثروة الزراعية . وأقول لهم : إن كل الحق معهم ، وما يفعلونه خير وأبقى ، بل يجب أن يصدروا هذه الأوامر التى يجب أن تنفذ .

والسؤال الخطير يقفز فى تحد واضح : إذا كان هذا هو واقع الأمر فى المناطق الريفية فلماذا هذا التمسك الملح بأن يكون التعليم فى هذه المناطق هو نفسه التعليم بمنطقة مصر الجديدة التعليمية . . مثلا ؟ **إن فكرة السلم التعليمى الموحد فى كل أنحاء الجمهورية يجب أن يعاد النظر فيها بواقعية مجدية .**

تلاقت نظراتى مع أحمد الذى كان يداعب هذه القطة الساذجة التى أتت إلينا بعد غياب ، ولـكنها الآن معنا . أحسست أننى داخل إعصار جبار وعيناى تلتهمان وجه قريبى المحال على المعاش والذى يسكن الريف . . . . قال أحمد والقطة آمنة معه ، وزوجته شوق تنتظر تعليقه . . . .

عهدنا فى أمريكا هذه الزهات الحلوية ، وإن كنا نحن الذين نطهو بعض اللحم على نار الفحم ليعضد ما أحضرناه معنا كجماعة ، ونعيش بعض اليوم فى أحضان الطبيعة حيث الهدوء والجو غير الملوث بالسموم . . . وقد سعدت اليوم بهذه الجلسة ، وربما تكرارها لسكان المدن يفيدهم جسمياً ونفسياً . الفكرة التى أوردها السيد الفاضل الذى أكرمنا فوق المزيد ، فكرة تستأهل كل العناية وهى جديرة بأن تبحث فى إطار الواقع الذى يعيشه وطنى مصر العزيزة .

ليكن واحداً من أهدافنا الكبرى من التربية فى مصر **مكافحة الفقر والعمل على زيادة الانتاج على كافة المستويات** . هذا يتطلب مزيداً من وضوح الرؤية فى الموقف التعليمى فى القرية المصرية . ليكن هناك **تعليم ضرورى** مدته أربع سنوات يتعلم فيها الطفل الأساسيات الضرورية للحد الأدنى الذى يحتاجه للفرد ليكون مواطناً . ولو أحسن تعليمه فهو سيتحصل على قدر كبير جداً ممـا يتحصله طفل السنوات الستة الحالية بظروفها الراهنة . وإلى جانب هذا سوف يلم بشىء من المعرفة والمهارة الزراعية التى تتناسب مع البيئة التى يعيش فيها .

ويجب أن يكون هناك تأكيد واضح أن هذا التعليم الضرورى ليس مرحلة منتهية بأية حالة من الأحوال . إذ يجب أن تفتح القنوات لتعليم مسائى — أو بأية صيغ أخرى — حتى يتابع من يريد ويواصل تعليمه . أقول من يريد ومن يرغب ، فلا إكراه هنا مطلقاً . بهذا نحن مع المحافظين نحافظ على الثروة الزراعية . وبهذا قد نقلل أعداد الأطفال فى الصفين الخامس والسادس مثلاً ، وهذا يتطلب إعادة تنظيم شاملة لمنهج المدرسة الابتدائية آخذين فى الاعتبار أن كيفية تقديم المعلومات فى مقرر ما قد تؤدى إلى تقليل عدد الحصص الأسبوعية . إذ ربما ما يدرس فى ست سنوات

يمكن أن يدرس فى أربع سنوات بنتائج إن لم تكن أفضل فهى لا تقل . . . إذا كانت طرائق التدريس والمجهود التعليمى مختلف عما هو حادث الآن .

ويجب أن تتغير صورة القرية المصرية والملايين من السكان الذين يعيشون فى آلاف من هذه القرى . الظروف الزراعية دعت بالضرورة إلى أن يعمل الأطفال فى الحقول ، ولزيادة دخل الأسرة الريفية يجب أن تعمل النساء . فى اليابان تعمل المرأة فى بيتها ومع جيرانها فى تجميع أجهزة الراديو الترانسيستور بعد دورة تدريبية قصيرة ، ويكسبن ويرتزقن ، وترتفع موارد الأسرة .

هنا انبرت شوق فى حماس شديد واندفعت فى غيرة حبيبة على بلدها وعلى هذه الأيدى القادرة والتى لا تعمل ، قائلة إنه فى الإمكان إقامة صناعات زراعية وغير زراعية تسهم فيها المرأة الريفية دون أن تذهب إلى المصنع ، وأن تعمل فى دارها وتتكسب لأسرتها . وتتساءل شوق عن هذه الآلاف من كيلومترات من الأراضى على ضفاف النيل والترع والممرات المائية ألا يمكن أن تزرع أشجار فاكهة . . . إذ كيف يكون هناك نيل عظيم وأرض خصبة ويترك كل شىء دون استغلال فى بلد يشتاق إلى الثروة والتقـــدم ؟

ويتدخل المضيف وفى عينيه اشعاع وضاء قائلاً .... قول سليم وحكيم ، بل هو اتجاه بناء شهدت بعض لمحات منه فى القاهرة فقد عملت بعض ربات البيوت انواعاً من (المربى) و (المخللات) تبيعها بعض المحلات وحققن ربحاً حلالاً لأسرهن فى وقت ترتفع فيه الأسعار جنونياً . التربية فى المدارس فى الريف يمكن أن تسهم ، وأن تسهم إسهاماً كبيراً فى مكافحة الفقر . ويجب أن تترك للمحافظات حريات كثيرة فى تطويع العملية التعليمية بحيث تؤدى إلى مكافحة للفقر فى منطقتها . وقد تؤدى هذه الحرية إلى تفجر

ينابيع الابتكارية والإبداع . ربما كان التقوقع فى نظام تعليمى مفروض بكل أوامره داعياً إلى تكاسل فى العمليات المطورة والمحسنة فى تجويد . صحيح أن بعض مديرى مديريات التعليم أجهدوا أنفسهم وحاولوا استخدام طرائق (مبتكرة) فى تقديم المعلومات ، وهذا أمر محمود ، ولكنها فى معظمها تمس جزئيات بعيدة عن التغيير الجذرى . هذا التغيير هو ما نتطلع إليه كمحاولة لمكافحة الفقر ولمكافحة الأمية .

ولا أعنى بمكافحة الأمية تعليم المواطنين القراءة والكتابة ، ولكننى أتطلع إلى الفرد كفرد فى المجتمع يتعامل مع نفسه ومع غيره من الأفراد ، ويتعامل مع المؤسسات والهيئات . هو فرد يعرف أين هو مع ربه خالقه ، أين هو مع نفسه ، أين هو مع غيره من الأحياء والأشياء . هو فرد إذا علمته كيف يقرأ ، فيجب أيضاً أن يتعلم حب القراءة . هذه معانى تتطلب من المسئولين مجهودات غير قليلة لوضعها فى صيغ إجرائية وسلوكية . وكيف يكون التنفيذ ؟

وتنبرى شوق قائلة . . . مقبول هذا ومعقول ، ولكن لا بد لى أن أعود إلى منطقة اهتمامى وهى المرحلة السابقة لهذه السنوات الأربعة التى تكلمتم عنها ، وأتكلم عن أطفال الريف المصرى قبل سن السادسة . إذ مع التطور الحادث فى المجتمع اليوم اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً . . . الخ محلياً وعالمياً تبرز الأهمية الكبرى للعناية بهذه المرحلة . ومعروف أن فى الاتحاد السوفييتى وفى الولايات المتحدة الأمريكية وفى غيرهما من الدول المتقدمة والنامية أيضاً اهتماماً ناصعاً واضحاً بهذه المرحلة ، فقد رفضت هذه الدول أن يكون أطفالها صرعى تيارات هوائية مشحونة بالملوث اللا تربوى . إن ما هو حادث فى مجتمعنا من شبه تجاهل لهذه المرحلة كان لا يجب أن يحدث ، وفى هذا المجال نحن لا نتقدم ، بل نتقاعس ونفقد نفوساً وعقولاً على الطريق قبل أن يدخلوا المدرسة الابتدائية ، وبعض هؤلاء سيظلون عالة على

المجتمع طوال حياتهم أو شطراً كبيراً منها . . . . بل ربما أساءوا إلى المجتمع بما فيه ومن فيه .

زوجى أحمد لا ينسى عندما كان طفلاً صغيراً هنا ودخل الكتاب وحفظ سوراً من القرآن الكريم وتعلم شيئا من القراءة والكتابة ، يذكر سيدنا ويذكر العريف . . . . والكتاب كما سمعت موجود اليوم أحياناً . . . هل نطوره ؟ هل نحسنه ونجوده كمرحلة قصيرة تعين مرحلة التعليم (الضرورى) أو الابتدائى ؟ مصرنا اليوم تحتاج إلى كل الطاقات والإمكانات البشرية والمادية بعد تطويرها .

. . . . وتلفت الجالسون يتطلع كل إلى غيره ، ويقفز متصاعداً من عينى إعجاب بما سمعت ، وقلت . . . وحتى يكون اختيارنا من بين بدائل سليماً علمياً ووظيفياً ، علينا أن نفكر فى المحصلات النهائية والواقع الفعلى . وليس الأمر قاصراً على الكم أو الأعداد ولكن التنبه اليقظ إلى الكيف مطلوب حتى لا تذرونا رياح المظهرية وتلقى بنا — ربما — فى غيابات من الجب قد نخرج منه بعد الجهد الجهيد نادمين .

التكرار وارد للتأكيد على ضرورة انفتاح القنوات والمسارات التعليمية لدراسات نظامية — لمن يريد — بعد التعليم الضرورى تحقيقاً (لديموقراطية التعليم وتكافؤ الفرص) هذا أمر لا جدال فيه . فقط أود أن أقرر — كما علمت — أن أجر العامل الزراعى ، الذى أصبح لا يعمل منذ شروق الشمس إلى غروبها ، يصل إلى ثلاثة جنيهات وربما أكثر ! ! والمضحك المبكى أن أستاذاً يسمونه لعلمه كبيراً ، وهو فعلا كبير ، تعطيه اللوائح المالية ، الموضوعة منذ أكثر من ربع قرن ، جنيهين وتسعة عشر قرشاً بالكمال والتمام نظير حضوره جلسة تمتد إلى ساعتين ويدفع أجر مواصلات ذهاباً وإياباً أكثر من جنيه . . . . ! ! ويعطى من وقته ساعة ونصف فى الانتقال إلى مقر الاجتماع والعودة . ما ثمن الفكر والعلم والتفكير ؟

أنا اعتذر وأنا أتأسف فإن انفعالات معينة تدفعنى إلى الخروج عن الموضوع الذى نحن بصدده ، قد يسميها بعض القراء عمليه تنفيس . . . لا بأس . وأقول إنها عملية تفريغ لشحنات عصبية فى صراحة المحب لبلده والساعى إلى محاولة التخلص من السلبيات والأخطاء وتصحيح المسار فى مجتمع نستشعر فيه الأمان والرغبة الصادقة للأعمال الجادة .

أسرة كبيرة وغزيرة العدد ، والعلاقات فيها تحتاج إلى كثير من التقويم والتعديل ، ألا يجب أن يتدخل كبير هذه العائلة تدخلاً حازماً الآن والآن للضرب بكل قوة على العناصر المنحرفة فى هذه الأسرة . . . . حتى نعيش فى أمان الحب ودفء العاطفة الحلوة ؟ كم نشتاق إليها . . . .

مرة أخرى اعتذر ، وليتصل الحديث التربوى ، إذ قد صار تفكير ثم قرار عن التعليم الأساسى ، وهذا أمر جميل ورائع ومظهر حضارى نتباهى به أمام دول أخرى ، وهو دليل دال على قدرتنا وأننا لسنا عجزة ، ونحمد الله ونشكره لكل هذا . ولكننى أعجب لوضع التعليم الابتدائى الراهن ، ومن لقطة صغيرة أقول إن بعض المنتهين من التعليم الابتدائى قد يرتدون إلى الأمية تدريجياً مع مشرق كل صباح حتى إذا اكتمل القمر بدراً عدة مرات وصلوا هم إلى المحاق . . . . وضاعت مجهودات وملايين من الجنيهات . أسأل هل حقاً تستوعب الصفوف الأولى من التعليم الابتدائى كل الأطفال الذين بلغوا سن السادسه ؟ أم أن الصف الأول الابتدائى فى مناطق كثيرة لا يستوعب إلا ثلاثة أرباع الأطفال ؟ وهؤلاء ينقلون إلى الصف الثانى حتى تكون هناك أماكن لوافدين جدد فى العام الدراسى التالى . هذا يعنى أن مدارسنا الابتدائية ليست قادرة — لعدة أسباب — على استيعاب كل أطفال سن السادسة ، وبالطبع غير قادرة على استيعاب كل الأطفال بين سن السادسة والثانية عشرة . وقد أجريت دراسات عن هذا الحال وأرجو أن تدرس بعناية .

لـكن النية الطيبة موجودة — وفى هذا خير — ويمكن أن يتحقق التعليم الأساسى فى بدايات القرن الحادى والعشرين ، وهذا أمل عند البعض . وطبيعى أن الخريطة التعليمية لهذه السنوات التسعة ستكون خطوط طولها وعرضها مغايرة لواقعنا وتصورنا الآن ، وسوف تكثر روافد أنهارها لتحقق تنوعات فى المقررات والدراسات . . . بل ربما نظرة ليست فى حسباننا ، والله الموفق أولاً وآخراً .

* * *

وتميل شمس الأصيل إلى المغيب ، وطالت ظلال الأشجار ، وتهب نسمات فيها بعض من برد ضم الثياب على الأجسام ، وهرعت القطة الساذجة إلى حضن دافئ . ولـكن فى الحديث شوقاً ، وشوق متلهفه بكل الحماس للإستماع والـكلام بكل الاستمتاع . وأحسسنا أن الزرع الأخضر وقد شبع من الهواء والشمس الحانية قد ارتاح وسكن وفيه زاد لليل طويل ، وفيه رغبة إلى فجر ندى . وعلى البعد فلاحون يعودون إلى بيوتهم وزوجاتهم وأولادهم ، وتتوقف السواقى ويبدأ يخيم هدوء فقد قاربت سحابة يوم على النوم .

. . . . .

. . . . .

ولـكل حادث حديث ، وقد عدت إلى الـكلام بعد أن احتوى الليل القرية الوادعة ونشر عليها جواً بارداً قتلته جدران الدار السميكة مع جذوات من نار . . . :

ليس المفروض ، بل ليس من المعقول أن يكون المقصود بالتعليم الأساسى تحويل العملية التعليمية إلى اهتمام زائد بإتقان بعض الحرف ، وكأن مرحلة التعليم الأساسى هى مرحـــلة تعليم سابق للمهنة .

أبداً . . . فى تصورى . . . لا يجب أن يكون الأمر ما قد يظهر فى بعض المدارس من اندفاع حماسى لعمل (كبش) معدنية أو لعمل سلال من خامات البيئة المحلية ، وانتاج مئات من زجاجات الشربات بمذاقاته المتعددة ورص تلال من أوعية (المربى) بطعومها السكرية المختلفة الحلوة . . . الخ . أكان أقول بقاطع الكلام أن وزارة التعليم اليوم لم تقصد هذا ، ولم يكن فى نية المسئولين أن يتحول الأمر إلى هذا . ثمة حلقة تساؤلية مفقودة ، بين وضع السياسة وتخطيط المناهج والتنفيذ .

وقد عهدنا فى أضابير وزارة التربية والتعليم ، أو حالياً وزارة التعليم والبحث العلمى ، ألواناً من التهافت . والتهافت كما يقول الإمام الغزالى هو التسرع بجهل ، إذ يقول إن البعوضة لأجل ضعف إبصارها تطلب ضوء النهار ، فإذا رأت ضوء السراج بالليل حسبت هذا السراج كوة أو فتحة من البيت المظلم يدخل منها ضوء النهار فترمى بنفسها إلى السراج ، وتكرر المحاولة مرات وهى تحسب أنها متجهة نحو نور النهار حتى تحترق .

أخشى أن يكون قد حدث تهافت نحو التعليم الأساسى من قبل المخططين والمنفذين وفهموا الأمور على غير ما يجب أن تفهم ، فتحترق الفكرة الجميلة . . . ولا أعتقد أن ما يحدث فى بعض المدارس هو ما قصدته وزارة التعليم فى عمق ونبل معنى التربية الأساسية كمرحلة تعليم . . . المؤلم أنها تحولت إلى تغييرات غير هامة فى المنهج ككل وتغيير فى عدد قليل من المقررات . أقول هذا ، وقد أختلف مع البعض فى المدى الزمنى لهذه المرحلة .

وقد عهدنا فى سجلات تربيتنا المعاصرة ألواناً من (التهافت) ، وعلى سبيل المثال : (هوجة وسائل الإيضاح) فى منتصف الخمسينات من هذا القرن . . . إذ أوحى إلى بعض قمم المسئولين الإداريين عن التعليم فى ذلك الوقت أن (وسائل الإيضاح) هى آخر وأجل صيحة تربوية . وبسلطة

ثورية صدرت أوامر ومنشورات أرسلت إلى المدارس للتنفيذ : ولم ينم الكثيرون من النظار ، وإذا نام بعضهم حلم بوسائل الإيضاح :

وتسابق القوم – كالعادة – فى نيات طيبات لتنفيذ ما جاء بالمنشورات ، ولكن بوعى أغلبه غير سليم . وتمر أيام غير كثيرة عند ما توقف المارة أمام بعض المدارس وقد غطت واجهاتها بالخرائط وغيرها من مصورات ورسوم بيانية . وقال طيبو القلوب .... والله هذا خير لتثقيف الشعب داخل وخارج المدرسة . أما فى داخل المبانى المدرسية فقد غطيت جدران الفصول والممرات بهـذه الوسائل الايضاحية التى أنتج بعضها المدرسون والتلاميذ وأنتج معظمها محال فتحت فجأة بجوار المدارس يعمل فيها رسامون وخطاطون مهرة ... وظهرت فى المجتمع (حرفة) جديدة فى خدمة التربية والتعليم ! !

وانزوت العملية التربوية السليمة فى تضاءل وخجل أمام هذا (المولد) و (السيرك) الذى نصبته مدارس الدولة . إنزوت متألمة وهى تصيح فى غضب . وبدأت العاصفة الهوجاء تهدأ رويداً رويداً بعد أن أصيبت معدة بعض المدارس بهذه التخمة الغذائية التى كبست على صدرها وضايقت أنفاسها .

وتحكى الأضابير أنه حدث أن هب من هب وصاح بحنجرة قوية ، وما أكثر أصحاب هذه الحناجر ، قائلاً ... النشاط . هى كلمة ساحرة فى ذلك الوقت ، فى شتاء الخمسينات أو خريفها . وصار كالعادة تهافت . واعزفى يا موسيقى ما شاء لك لأطفال وتلاميذ تركوا فصولهم – بأوامر – ليتدربوا على حركات رياضية وايقاعية استعداداً لمهرجانات كبرى .... وصار تهافت بناء على أوامر .

أبداً ، حتى لا تتلقى العملية التربوية على أم رأسها وفى رأسها شوك من حديد أحمر ملتهب ... ليت الأمر كان شورى ، بمعنى أن يشترك المنفذون

فى اتخاذ القرارات . هذا ما تحاول التربية كهدف من أهدافها أن يشترك المتعلمون فى اتخاذ القرارات ، والأولى أن يشترك المعلمون والنظار فى اتخاذ القرارات . إذ كيف تسلب فرداً حقاً وتقول له علم تلاميذك ما سلب منك ؟ عجب !

وصارت فى وقت من الأوقات هوجة أخرى — وما أكثر هذه الهوج فى بعض أمورنا التربوية — عنوانها : المدرسة مركز إشعاع . وباختصار — أراه مخلاً لمعنى هذه العبارة ونتائجها — أقول إن ناظر مدرسة وضع فى فناء المدرسة (كلوباً) ضخماً ومشعاً فى إنارته . وسئل : لماذا ؟ قال حتى تصير المدرسة مركز إشعاع للمجتمع . . . . هكذا . . . أمر يضحك ويبكى .

التكالب الأهوج المتسرع لتنفيذ إيماءة من (كبير) دون تروٍ وتأنٍ ، هو سلوك طفولى كعيل الرجل الذى يريد أن يقول لأبيه . . أنا شاطر . . . وأنا خير من إخوتى ومن يدرى ما قدرته الحقة . إذا كان التنافس والجد لمصلحة عامة ، فالأمر مقبول ، أما السطحية والقشرية فهى زيف مضلل ومهدم لسبيل التقدم .

نحن هنا ، وبكل القوة ، أمام أهمية القدوة الحسنة ، إذا رأى التلاميذ زيفاً فى سلوك معلمهم إرضاء لرئيسه ، ويرضى الرئيس ، وهم يعلمون حقيقة الواقع ، فأى قيم تتكون لديهم ؟ وبعد أن تكون المدرسة زارعة لاتجاهات وقيم تدفع المجتمع إلى التقدم ، إذا بها وعلى أيدى رجالها — أقصد بعضهم — تأخذ بيد التقدم إلى التخلف . وهذه أيضاً كارثة حضارية ، أرجو ألا يحدث فى مصر إذات حضارة تمتد فى الماضى إلى أكثر من سبعين قرناً .

عسانا إذن نتمهل فى تعقل علمى ، ونقيم الموقف فيما يختص بمرحلة

التعليم الأساسى وما يدور فيها . ربما هى واحدة من بدائل أخرى . . . بل ربما هى ليست أفضل البدائل ، كما أنها ليست أسوأ البدائل . هل صار — مثلاً — تفكير فى المشروعات الإنتاجية ذات الفعاليات المؤثرة ؟ وهذه عملية يلعب فيها المربون أدواراً محدودة ، ويلعب غيرهم أدواراً رئيسة دون أن يحس المربون حساسية ما ؟ إذ الأمر يتعلق بتربية أفراد من الشعب . **إن عملية التربية ليست مملكة المربين فقط .**

نحن نصوغ تربيتنا حسبما يقتضيه ويتطلبه مجتمعنا ، وقد نستفيد من صيغ أخرى ، لا بأس . لنا واقعنا ، وفى إطاره ، وعلى أساس قيمنا الإيمانية نحن نقرر . . . وربما نخرج بصيغ جريئة ، ولكنها تنبع من معاناة المجتمع محاولة أن تشفى بعض العلل . قد تتعارض مع المألوف المعهود ، وهذا هو التحدى الحضارى فى عالم يتصاعد تقدماً .

هنا نحن ننحت صيغاً ترضى المجتمع ولا تتجاهل الأفراد . وهنا نحن لا ندخل فى محاكاة أو سباق مع الغير وتختلف ظروفهم عن ظروفنا . ولا يجب أن نخجل دولياً ، إذا كان سلمنا التعليمى أو سنوات الإلزام مختلفاً ، وقد يكون أمراً متواضعاً . فالمجتمع المصرى مر فى ظروف عصيبة قاسية يتعداها إلى مرحلة بناء وانتعاش آملاً فى تقدم وازدهار ، وهذا عمل صعب ويتطلب الكثير من الإيمان والجهد . ونحن له ومعه .

إن إرضاء الحاجات الفردية والإجتماعية فى بيئة معينة يتطلب نظاماً تعليمياً معيناً ، قد تقل سنوات الإلزام فيه أو تزيد عن بيئة أخرى ، ما لنا وغيرنا ، نحن نتبادل الأفكار ولنأخذ ونستعين ونفيد مما يتناسب مع ما نحن فيه من آلام وآمال ، مع قيمنا وإمكاناتنا البشرية والمادية .

إن الصالح الأكبر للمجتمع لا يجب أن تتحكم فيه أهواء صادرة عن تقاليد وعن قيم ربما صارت بالية . . . ثم نخضع لها تاركين الدنيا تجرى

ونحن نحاول استرضاء اشياء صلحت لوقت مضى وغالباً لا تصلح لمجتمعنا الآن : تكون نتيجة (الدلع) الإجتماعى تخلخلاً فى العمالة وبطالة مقنعة ، هى فى ذاتها تثير المتأوهين منها إلى الغضب . ولتعمل دراسات علمية عن المتسربين والفاشلين ، وكم كلفوا الدولة ملايين الجنيهات وكم حرقوا من أعصاب أولياء الأمور ، وكم عانوا وأثر ذلك على انتاجهم وصحتهم . أطلب مواجهة بصراحة الصدق ، وسوف تكون أخبار غريبة عجيبة .

فجـر الصيـادين . .

كان الفجر وصلاته ، وقد صحبت المضيف وأحمد وابنه أحمد إلى مسجد القرية : والناس يستبشرون بيوم جديد . وعند عودتنا إلى الدار رأينا جموعاً من الفلاحين رجالاً ونساء وأطفالاً يتوجهون إلى الحقول . وتبسم المضيف وهو يراقب أحمد فى تطلعه النهم . وليس بعد الفجر نوم فى هذه القرية .

قال المضيف . . . . زرت منذ فترة بعيدة قرية على شاطئ بحيرة ، جل عمل السكان يعتمد على صيد السمك ، وقلة قليلة لا تعمل عملاً مفيداً يكمل مع غيره آلة العمل الكبيرة . هى قلة قليلة جداً . . . ، ولأسباب . وكثيراً ما خرجت مع الفجر إلى الشاطئ والمرفأ الآمن لمراكب الصيد والصيادين وقد عادوا بعد رحلة عمل ، ربما تلاعبت بهم أحياناً بعض الأمواج ورخات من أمطار ، وأحياناً كثيرة يبتسم لهم سطح البحيرة ، فيطرب الماء ونجوم فى السماء لأغانيهم الشعبية التى تزداد فرحاً عند ما يرفعون الشباك وفيها صيد سمين وثمين .

وعند ما لاح لهم الشاطئ وهم يقتربون منه وهو يقترب منهم يريد أن يحتويهم بحنانه تعالت الأصوات ولمعت العيون وتراكضت الأمواج الخفيفة الصغيرة نشوى . وكل شيء جميل عذب فقد أدى كل صياد دوره وسوف ينام سعيداً ، والذين ناموا سواد الليل سوف يعملون . تكنولوجيا أى تخطيط وتنظيم وتنفيذ . لكل فرد فى هذه الأسرة الكبيرة من العاملين دوره المحدد والواضح . البعض يصنع الشباك ، والبعض يبنى المراكب الصغيرة ، والبعض يصلح ، والبعض يسوّق . . . الخ ، وتعيش القرية الساحلية سعيدة .

ومن بعيد . . . بعيد ، ولكنه قريب قريب يتطلع كبير هذه القرية الساحلية ومختارها ، فقد جلس معهم وإليهم ، وتكلم كثيراً ومعه رجال مخلصون عن الامتثال لأوامر الله عز وجل وعن قيمة العمل المنتج . . . . حتى صار كل فرد فى أصغر عمل يخشى غضب الله العلى القدير فيحسنه ويجوده متأكداً بأن بعض الهنات الصغيرة قد تحطم وتودى بالعمل الكبير ، وماذا يعنى مستصغر الشرر ؟ . . . هذه قيمة ما أجلها وما أعظمها .

العامل فى مصنع كبير فى دولة صناعية عظمى وهو واقف على خط الإنتاج يعلم أن ما يعمله ولو كان صغيراً جداً تتوقف عليه سمعة الصناعة ومنتاجاتها التى تصدرها بلده . هو مسئول عن سمعة بلده .

ما يدور فى هذه القرية الصغيرة يجب أن يحدث فى المدينة وفى كل أنحاء الوطن . وحتى نتخلص من اللا مبالاة والتسيب يجب أن تكون العقوبات رادعة فعلاً ، ومنفذة فعلاً . والأمر يتطلب فى المقام الأول قوانين صارمة وقدوة حسنة . وإذا حدث خطأ أو إهمال أو تسيب من فرد فى موقع عمله ، يجب أن يسأل ، ويجب أيضاً أن يسأل عمن تسببوا فى هذا .

وليس هناك كبير وصغير ، وإنما الكل يعملون ويقبضون ، وقد قبلوا أن يعملوا . . . . وقد علمتهم الدولة بالمجان .

الصيادون فى فجرهم وعلى مراكبهم وضعوا لأنفسهم ومع كبيرهم تقاليد وقوانين تنفذ ، والجماعة تعاقب من يشذ ، وقد تنبذه . إذن فهى قرية ساحلية عادلة يخشى سكانها غضب الله وغضب كبير العائلة وغضب أفراد هذه العائلة . فكان عمل وانتاج وانسحب التسيب والغش والتضليل . وقد ينسحب الأمر كله أو بعضه على آلاف من القرى فى ريف مصر بما فيها من ذكور وإناث ، بل قد ينسحب على البنادر والمدن ، إذ ليس للقيمة التربوية حدود .

• • •

وبعد تناول طعام الفطور انضمت إلينا شوق قائلة إنها قد سمعت بعض أطراف الحديث ، وأعجبت بقرية الصيادين هذه وفجرهم الجميل ، وسألت عما تفعله النساء فى هذه القرية الساحلية . وكان الرد أنها عضو فعال فى هذا المجتمع تسهم مع غيرها فى تنميته لأنها تعرف واجباتها وحقوقها . . . . قالت :

والأمر إذن واجب فى المدن حيث الحياة أكثر احتياجاً إلى مزيد من تفهم للتربية الأسرية . ليس الأمر أبداً حصصاً فى الحياكة ، وطهى بعض الأطعمة ، وتدبير شئون البيت . . . هذه أمور ضرورية وهامة ، ولكن جدت فى الأمور أشياء نحتاجها اليوم بكل قوة . قد يرى البعض فى كلامى سياحة خالية ، وأراها أموراً واقعية مجدية ، وقد سبقتنا دول أخرى اهتمت بالتربية البيئية والتربية السكانية ، بل دعت الآباء والأمهات للتوعية . غريب فى الخمس الأخير من القرن العشرين وما زلنا نعلم طالباتنا

فرعين أو أكثر من فروع الاقتصاد المنزلى تاركين فروعاً أخرى لا تقل أهمية ، بل هى أكثر أهمية فى بناء المجتمع . على سبيل المثال ، وفى اختصار ، هل تتعلم بناتنا فى المدارس (ترشيد الاستهلاك) ؟ لعل وزارة التموين تتوق بكل الحماس إلى تدريس الترشيد . بل المطلوب مزيد من التأكيد على تكوين عادات غذائية سليمة . إذ لماذا نحمل ونرهق ميزانية الدولة — فى دعمها لسلع غذائية — بأكثر مما تحتاجه البطون . وعلى الطبالى والموائد تترك بعض من أرغفة الخبز وربما لا يستفاد منها ، وتطير فى الهواء ملايين الجنيهات . ثم تعالوا ، وقولوا لى ، لماذا لا يتعلم أبناؤنا وشبابنا بعضاً من فروع الاقتصاد المنزلى ، فكثير من العاملين يتزوجون عاملات . والتعاون العائلى مطلوب .

كما أن اهتماماً زائداً يجب أن يوجه لتربية الأطفال فى مجتمع اشتراكى ديموقراطى ، وهذا من مسئولية التربية الأسرية . لقد مجدوا دور الأم فى بناء المجتمعات . . . هل تعرف مدارسنا الإبتدائية فى مواد الاقتصاد المنزلى شيئاً من هذا ، وقد عرفت أخيراً أن التربية الأسرية أو الاقتصاد المنزلى يدرسه هنا أيضاً الأولاد أحياناً ، والله هذا خير ، وخير كبير ، أرجو أن يزداد بعد أن يعاد النظر فى مناهجه بحيث تؤدى إلى اكتساب معلومات ومهارات تنفع المرأة والرجل ، وتكون اتجاهات مثل التعاون ، وتنمى مع التربية ، الفنية التذوق الفنى والجمالى . . . . وقد يظهر هذا فى اختيار ألوان الملابس ، على قلتها ، لا بأس ، فى تجميل البيت وإن كان حجرة أو حجرتين ، لا بأس . منذ قرون تكلم الإمام الغزالى — كما سمعت منكم — عن آداب الأكل ، هـــذا حسن ، إذن لنتعلم ونعلم أطفالنا آداب تناول الطعام .

أقول إن هدفاً رئيسياً من أهداف التربية هو المحافظة على ثروات المجتمع وصيانتها . قد تسهم التربية الأسرية بنصيب وافر فى هذا مع غيرها من مواد الدراسة . زمان كنا لا نحفل ولا نهتم ، بل ونعبث ببعض المرافق

العامة ، نكاية وتحدياً للإستعمار أو الشركات الأجنبية . اليوم مصر مصرنا بكل ما فيها ويجب أن نصون ونحافظ على كل ما فيها ، لأن فى هذا خيرنا .

ما أجمل وأجل أن تبدأ مفاهيم التربية السكانية والبيئية من مواد الاقتصاد المنزلى فى المرحلة (الضرورية) أو (الابتدائية) أو (التعليم الأساسى) ، المهم أن تبدأ ، وبكل ما يمكن أن يتاح من وسائل الاقناع الواقعى والانفعالى والعلمى . إذ أن إعلانات الجرائد والمجلات والتليفزيون لا يقرأها ولا يراها أشد أفراد هذا المجتمع إنجاباً وذرية . إن نظرة شمولية تكاملية بين الاقتصاد المنزلى أو التربية الأسرية مع مواد أخرى ربما تؤتى أكلها ، ومن يدرى ؟

أرجوكم — لخير بلدى — أن تبتعدوا عن هذا المفهوم غير السليم ، والذى يصلح لقرن مضى ، وقوامه النظر إلى الاقتصاد المنزلى على أنه حياكة وطهى وغسل وكى . أبداً ، بل أبداً ، الدنيا تطورت ، وهذا الفرع من المعرفة يجب أن يتطور ، وفى تطوره الجاد الصحيح تصحيح للكثير من العادات التى تثقل ميزانية الدولة لقصور وضعف الوعى . إذن فلنتجه بكل القوة والعلمية ونعالج سوء الاستهلاك المادى والبشرى بداية من مرحلة التعليم الأولى حيث تبدأ الاتجاهات تتكون .

. . . . . .

. . . . . .

ما زالت الصورة التى استمعنا إليها منذ لحظات عن الصيادين وفجرهم وتعاونهم وأعمال أمراد القرية — كما أتصورها — تدعونى إلى كثير من التفكير . . . هكذا قال أحمد وأردف مضيفاً . . . كم يكون رائعاً أن تهدف التربية منذ بواكير الطفولة إلى تكوين اتجاه التعاون والعمل

الجماعى. التعاون على البر والتقوى ، التعاون فى كل مناشط حياتنا ، صغيرها وكبيرها سهلها وصعبها . فليعرف الطفل منذ نعومة أظفاره ، ويرى ، ويلاحظ ويفهم . إذا لم تكن الأم عاملة خارج البيت ، فالوالد يعمل خارجه والأم تعمل داخله ، والأعمال تتكامل لتهيئ له حياة فيها راحته وغذاؤه وكساؤه ومأواه وتسليته ..... ويتدرج هذا الفهم عن أهمية وضرورة التعاون مع نموه الزمنى والعقلى ، عند ما يلعب مع أصدقائه ، وعند ما يجلس للتعلم ، وعند ما يشاهد — مثلا — مباريات كرة القدم ، فإن تعاون وتفاهم الفريق المكون من أحد عشر لاعباً أمر ضرورى . بل إن رغيف الخبز الذى يأكله تشترك فى عمله عشرات الأيادى ، ولكل يد دورها وله أهميته . البدار فى تكون الاتجاهات الصالحة خير ، فإن مصرنا الحلوة تزداد حلاوة بأبنائها ذوى الاتجاهات البناءة . هذه مسئولية كل الأوساط التى تشترك فى تكوين اتجاهات المواطنين .

من حق المواطنين الشرفاء أن يغضبوا لهذا التسيب والإهمال واللا مبالاة عند البعض فى جوانب من حياتنا العامة قد يبلغ حداً خطيراً مهدداً . وقد يكون من أهم الأسباب غياب بعض الاتجاهات السليمة التى يجب أن تتكون عند أفراد مجتمعنا بداية من الطفولة . بعض الدول تعد برامج لتربية الوالدين حتى لا تكون هناك هوة بين ما تحاوله التربية النظامية وما يحدث خارج المدارس قبل أن يدخلها الأطفال وأثناء تعلمهم فيها . الإنحراف عن جادة الصواب فى بلد يسعى إلى التقدم خطير ومثير للتفكير .

. . . . .

. . . . .

المسبحة الثمينة والشعر الفضى ، وقطة ساذجة سوداء عرفت الطريق رة أخرى إلينا وهى تتودد ، وأحمد قد شفاه الله ، وعادت الابتسامات إلى الشفاه ، ووجه شوق يفيض شكراً لله عز وجل ، وأنا استمتع بوجبة فكرية شهية . . . . وكانت تدور فى رأسى خواطر متسائلة — وما أكثرها — وعلى سبيل المثال : هل يعمل المرءوس لرئيسه أم مع رئيسه ؟ وأسأل : لماذا لا نتعلم أن الاختلاف فى الرأى لا يجب بالضرورة أن يؤثر فى العلاقات الإنسانية ؟ وأسأل : هل فى الخطأ عيب ، أم أن الاستشراء فى الخطأ وعدم الاعتراف به هو العيب ؟ هذه نقاط قليلة من نقاط كثيرة يجب أن تهدف التربية إلى معالجتها والاهتمام بها . فالإنسان المصرى العصرى يفتقد إلى الكثير مما يجب أن يكون فى نسيج تكوين شخصيته . وهنا يجب أن أؤكد أن التعميم غير وارد مطلقاً ، إذ بين ظهرانينا رجال ونساء عاملين وغير عاملين ، مرءوسون ورؤساء على كافة المستويات ، هم بكل الاعتزاز فخر لمصر ، إنهم آمنوا بربهم ووطنهم فى سعى دائب للخير .

هى خواطر وتساؤلات تجيش فى رأسى . . . ولست أدرى ماذا حدث ؟ فقد انبرى من حولى فى نقاش طويل سداه ولحمته محاولات للإجابة عن تساؤلات صامتة ، ربما خرجت من رأسى فى اشعاعات أثيرية أو غيرها التقطتها أدمغة الموجودين وهزتها فاستجابوا فى حماس وضاء عبرت عنه كلمات متوهجة فى إيقاعات نابضة .

. . . . .

وجه فتاة ريفية متورد تقفز السعادة الطاهرة منه ، وتحمل أكواباً من الشاى وهى تتقدم منا . . . . وفجأة يكفهر الجو فى قسوة ، وتحتضن شوق إبنها وابنتها ، وتموء القطة فى ذعر ، وجميعنا يسأل الله اللطف . . . والريح صرصر مدوية ، وحبات من البَرَدْ تدق السطوح فى اصرار محدثة

جلبة غير مريحة . وظهر خلل فى المكان . وحدث تشقق طفيف فى الجدران .

وساد صمت خائف رهيب مريب .

وقرب الخوف بعضنا من بعض فى شبه تلاصق ، كأنما يستمد الواحد من غيره قوة لمواجهة هذا التحدى .

والطبيعة فى عنفوانها لا تعبأ ولا تراعى ، وزئيرها يدوى وهو أعتى من رغبتنا ورجائنا .

وقد تسلل بعض البرد الذى ذاب ماء إلى بعض المكان .

قال المضيف .... ما حدث ويحدث الآن أغرب من كل خيال . أمر لم نعهده فى قريتنا من قبل ... لعله إنذار لنا فى لغة عجيبة غريبة مثيرة للكثير من التفكير .... لا أعلم ماذا أقول ؟ إن كل شىء محير . إذ كيف تتشقق الجدران ؟ ومن أين لنا بهذا البرد ... وغيره ؟ إلهى يا ربى ... رحمتك . وازدادت الطبيعة قسوة .....

صحت أنا .... لا يجب أن نقعد فى سلبية وسواعدنا قوية ... فهيا إلى العمل ، ولنقابل التحدى بتحد ، وفى تعاوننا قوة قادرة على عمل الكثير ، وكل على قدر جهده ، ولكن لنعمل جميعاً .

وصار توجيه وتخطيط ، وانتشر جميعنا للعمل .

......

وتشرق الشمس ...

والقروية صاحبة الوجه المتورد الذى تقفز السعادة الطاهرة منه نتقدم من المضيف وأنا ، وهى تحمل (صينية) عليها فنجانان من القهوة .....